محمد بن ناصر العبودي

في شمال سيبيريا

رحلة وحديث في أحوال المسلمين

شمال سيبيريا

رحلة وحديث في أحوال المسلمين

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

https://dawa.center

المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies

حقـوق الطبـع محفوظـة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ⓒ **محمد ناصر العبودي ، ١٤٢٤هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر

شمال سيبيريا / محمد ناصر العبودي . - الرياض ، ١٤٢٤هـ

٢٠٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٢ - ٨٨٧ - ٤٣ - ٩٩٦٠

١ - سيبيريا - وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٥,٧٠٤ ١٤٢٤/١٠٤٨

رقم الايداع ١٤٢٤/١٠٤٨

ردمك : ٢ - ٨٨٧ - ٤٣ - ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م

(٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست عام١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض - المطابع الأهلية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) رحلات في أمريكا الوسطى - المطابع الأهلية للأوفست في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) في جنوب الصين - طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع النرجس التجارية بالرياض عام ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية - طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية - طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١) من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢) بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣) بلاد الشركس: الإديغي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٤) مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥) تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٦) نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة. مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٦٧) ذكريات من الاتحاد السوفييتي. مطابع النرجس بالرياض عام ١٤٢٠هـ

(٦٨) نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي. طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٩) في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين. طبع في مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٧٠) قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا، من سلسلة الرحلات الكاريبية، مطبعة العلا في الرياض ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(٧١) مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٢) مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٣) فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة في الرياض ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٤) المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية في الرياض ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٥) في جنوب البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٦) شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٧٧) بلغاريا ومقدونيا، من سلسلة رحلات في بلاد البلقان، طبع في مطابع الجاسر في الرياض، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٠١م.

(٧٨) بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر في الرياض، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٧٩) بيليز والسلفادور - رحلات في جمهوريات الموز -، طبع في مطابع العلا في الرياض عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(٨٠) ((العودة إلى ما وراء النهر)) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في مطابع المسموعة في الرياض، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٨١) ((على سقف العالم)) رحلة إلى التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة عام ١٤٢٢هـ.

(٨٢) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٨٣) غايتي من السفر إلى هايتي.

(٨٤) خلف الستار العقيدي، سياحة في شرق أوروبا وحديث في أحوال المسلمين.

(٨٥) شمال سيبيريا، من الرحلات السيبيرية، وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٨٦) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٨٧) أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٨٨) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٨٩) كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٩٠) نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٩١) مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٩٢) سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٩٣) صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٩٤) العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٩٥) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في بالرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٩٦) المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٩٧) مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة - بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية - نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(٩٨) كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(٩٩) المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) - ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

(١٠٠) مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(١٠١) رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(١٠٢) الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم. نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(١٠٣) واجب المسلم في بلاد الأقليات. نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(١٠٤) " العالم الإسلامي: واقع وتوقعات " نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها

(١٠٥) الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر في الرياض،

١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١٠٦) ((حِكَمُ العوام))، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١٠٧) في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبد العزيز في الرياض (تحت الطبع) في أربعة أجزاء.

(١٠٨) حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

المقدمة

الحمد لله الذي إذا أراد تيسير صعب تيسر، الذي هدى وقدر، وأعاننا على تحقيق هدفنا الأكبر، الذي هو زيارة الإخوة المسلمين في مهاجرهم البعيدة، وفي ديارهم العديدة، من بلاد السمر والصفر، إلى بلاد البيض والشقر، ومن بلاد السود، إلى بلاد الهنود.

ومن بلاد يقول المسلمون فيها: إنهم أقرب من يقول: الله أكبر إلى القطب الجنوبي، بمعنى أن مساجدهم هي أكثر المساجد قرباً من القطب الجنوبي، إلى أناس يقولون عكس ذلك بأنهم أقرب من يقول: الله أكبر إلى القطب الشمالي، بمعنى أن مساجدهم هي أقرب المساجد إلى القطب الشمالي، وهي بذلك تكون أكثر الأقطار بعداً عن مهابط الوحي، ومنطلق الرسالة المحمدية: مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولكن ذلك لم يفلّ عزمهم، ولا أضعف هَمّهم، حتى بنوا المساجد، وشيدوا لها القباب والمآذن.

وكان من تلك البلاد بلاد غريبة بناسها وأجناسها من بني البشر، ومنها بلاد غريبة بجوها، وما يتعلق بنَوّها عن بلادنا، مثل البلاد السيبيرية الشمالية، ذات البرد الشمالي الذي يوقف الدم في العروق، ويكاد يوقف جريان الماء في الحلوق، بل إنه يكاد يكسر العظام داخل الأجسام، وإنه ليفعل ذلك طبيعة غير تطبع، ما لم يكن الإنسان قد احتاط لمقابلته ومصاولته بأنواع منوعة من اللباس الثقيل، وأوزان ثقيلة من الحطب الجزل، يوقد به النار حتى تستمر حامية الأوار، طيلة الليل والنهار، في المنازل التي كانوا يشيدونها من نوع من الخشب الصلب الضعيف التوصيل للبرودة من الخارج إلى الداخل.

وفي هذا الزمن الأخير تسلحوا بالأسلحة المشتعلة المكتشفة في باطن

الأرض من النفط والغاز، ومن بخار الماء الحار مما كان أوائلهم لا يستطيعون حتى تصوره، فضلاً عن معرفة خبره وأثره، فأزال بذلك عن بيوتهم خطر البرد الداهم، والثلج المتراكم، ولكنه لم يزله عن جوائهم، ولا أفاد شيئاً في تبديل هوائهم خارج المنازل، فما زال هذا البرد النازل قاسياً كما كان منذ أن أراد الله لهذه الصحراء الجرداء في الشتاء، الخضرة النضرة في الصيف أن تكون كذلك.

ونحن إنما قررنا أن نذهب إليها في صيفنا الذي هو ربيعها، وهو زهرة زمانها، وغاية أماني سكانها.

فزرنا نواحي من نواحيها قاصيها ودانيها، وقد بدأنا بعاصمة العواصم الروسية (موسكو) لكي نهيئ الأمر لزيارة ما وراءها من بلاد الروس الشاسعة، من مملكتهم العريضة الواسعة، والمملكة كالملك في الاصطلاح العربي القديم هي المساحة التي يملكها شخص من الأشخاص، أو مجموعة منهم، وذلك قبل أن يعرف الناس اصطلاح الجمهورية والاتحاد بين البلاد، الذي يسود الآن تلك الأقاليم. وإن كان الجميع يعلمون أن الأمم الداخلة أو المدخلة في ذلك الاتحاد من غير ذوي الأصول الروسية، كالإخوة الشيشان، لم يستشاروا في ذلك، فضلاً عن أن يكونوا قد اختاروا ذلك الاتحاد بديلاً عن الاستعداد للاستقلال في هذا المجال.

وقد فارقنا موسكو إلى أقصى أقاصي الأراضي الروسية التي يسمونها (الشرق الأقصى)، وهي كذلك في زمانها ومكانها، ففيما يتعلق بالزمان يكفي أن تعرف أن الفرق بين توقيتها وبين توقيت موسكو هو عشر ساعات، فإذا كانت الساعة هي الواحدة ظهراً في موسكو، كانت هي الحادية عشرة ليلاً عندهم.

وأما المكان فيكفيك في الدلالة على ذلك ما نخبرك به من أننا طرنا

في جوف طائرة روسية كبيرة نفاثة من موسكو لمدة ثماني ساعات طيرة واحدة لا وقوف فيها، وكان ابتداء الطيران في الخامسة عصر يوم السبت حسب توقيت موسكو، فلم نصل إلى عاصمة تلك المنطقة من مناطق الشرق الأقصى الروسي إلا الساعة الحادية عشرة إلا الثلث من اليوم التالي، وهو يوم الأحد.

والأغرب من ذلك أننا تجاوزنا حتى الليل، فلم تغب الشمس عن طائرتنا منذ أن غادرنا موسكو في الخامسة مساء، حتى وصلنا إلى (بتروبافالوفسكا) في ضحى اليوم التالي لحظة واحدة، رغم أنها تقع إلى الشرق من موسكو، وليس إلى الغرب منها، وذلك أن الطائرة عندما أقلعت من موسكو اتجهت جهة القطب الشمالي، حيث لا تغرب الشمس في ذلك الوقت من منطقته، فلا ليل فيه ولا نهار، لأنه ليس هناك غروب ولا طلوع للشمس معتاد، وإنما هي الشمس تطلع في الأفق، وتظل تدور في الآفاق بدون أن تغرب، حتى تنقضي مدة وهي على ذلك، ثم تبدأ بالغروب حتى لا تشرق في الشتاء أياما عديدة.

ولم تذهب الطائرة إلى هناك بغية التفرج برؤية هذه الحالة للشمس في هذه الأيام الصيفية من السنة، فذلك أمر معروف لهم، قد ألفوه حتى صاروا لا يستظرفون حتى الحديث عنه، وإنما أرادت أن تستفيد من ضعف التحديب الكروي للأرض فوق الدائرة القطبية، وعندما وصلت إلى منطقة الشرق الروسي الذي تغيب فيه الشمس فترة قصيرة كان ليلها الصيفي القصير قد انصرم.

وقد ذكرت الرحلة إلى هذا الشرق الروسي في الكتاب الأول الذي كتبته في هذه الجولة بعنوان: « الشرق الأقصى الروسي ».

وبعد الانتهاء من زيارة الشرق الأقصى الروسي، ذهبنا إلى زيارة غرب

سيبيريا، إلى المدينة الكبرى وهي (أومسك)، فزرتها مع مدينة (تومين) وبعض قراها، وخصصت لذلك كتاباً عنوانه: « غرب سبيريا ».

وهذا الكتاب سيكون - بإذن الله وعونه - الكتاب الثالث في هذه الرحلة، وهو الكتاب الثاني في الحديث عن الجولات في أنحاء سيبيريا، ولن يبقى بعده من الكتب السيبيرية هذه إلا كتاب واحد وهو: « شرق سبيريا »، نسأل الله تعالى أن يعين على ذلك، وييسر كتابته على الوجه الخالي من الخطأ الفاحش، والزلل المعيب، إنه سميع قريب.

سبب الرحلة:

إن العمل في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة التي أتولى فيها وظيفة (الأمين العام المساعد) يقتضي أن أكون مطلعاً على أحوال الجمعيات الإسلامية، ومؤسسات المسلمين من المساجد والمدارس الإسلامية، فضلاً عن معرفة الشخصيات النشطة منهم، أو الأشخاص المؤثرين في العمل الإسلامي.

ويقتضي ذلك أيضاً أن أطلع على ظروف حياتهم، وما يحيط بأدائهم العمل الإسلامي من معوقات أو من مشجعات، إلى غير ذلك من معرفة أحوالهم.

فذلك مطلوب من أجل المعرفة ذاتها، ومطلوب من أجل الاستعانة به على أن تكون المساعدة التي تقدمها رابطة العالم الإسلامي إلى تلك الجمعيات الإسلامية والقائمين عليها مبنية على معرفة حقيقية، وفق معلومات ميدانية.

تلك هي طبيعة عملي، وذلك ما يقتضيني العمل أن أفعله.

وقد منَّ الله عليَّ بأن جعل عملي لمدة ست وثلاثين سنة في ميدان

تقديم المساعدات من بلادنا إلى الإخوة المسلمين في العالم، وهو ما أسميته تعاوناً، حذراً من أن يجرح إحساس إخواننا المسلمين إذا سميناه مساعدات، لأن الناس اعتادوا أن يروا المساعدات مقرونة بمصلحة من يقدمونها، سواء أكانت مصلحة مالية اقتصادية ملموسة، أم كانت مصلحة سياسية معروفة.

ونحن لا نقصد إلى شيء من ذلك، بل لا نستهدف إلا القيام بالواجب الإسلامي الذي نرى أنه يوجب علينا أن نقدم ما نستطيعه للإخوة المسلمين في أنحاء العالم الواسع.

ومن أهم مظاهر ذلك، أو لنقل إنه أهم المظاهر أن النصارى الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية، وهم أكثر النصارى، يتطلعون إلى قصر الفاتيكان في روما، يريدون أن يساعدهم على بناء الكنائس، أو يرسل إليهم المنصرين، وما هو بحاجة إلى طلبهم ذلك، أو تقديمه منه لأنه يفعل ذلك بمبادرة، بل بمبادرات منه، فيجيبهم إلى ذلك وإلى غيره.

أما الإخوة المسلمون، فإنهم يتجهون برغباتهم الدينية إلى البلاد التي فيها الكعبة المشرفة، قبلتهم التي يتجهون إليها في صلواتهم خمس مرات في اليوم والليلة، وكان من منة الله تعالى على بلادنا أن أولاها رعاية شؤون الحرمين الشريفين، وبذلك صار واجباً عليها أن تلبي رغبات الإخوة المسلمين التي تتعلق باحتياجاتهم الإسلامية.

وقد صارت المملكة العربية السعودية مدفوعة برغبتها تلك، ووفقاً لسياسة التضامن الإسلامية التي تسير عليها، لا تخيب ظن المسلمين بها؛ بل تستجيب لذلك ما استطاعت إلى الاستجابة له سبيلاً.

بل إنها كانت ممثلة في الجهات العاملة في ميدان الاتصال بالإخوة المسلمين عن طريق الجمعيات والمؤسسات الإسلامية، وعلى رأسها منذ

عشرات السنين رابطة العالم الإسلامي، تبادر هي إلى ذلك. ترسل الوفود، وتبعث البعثات إلى الإخوة المسلمين، تتلمس حاجاتهم، وتوثق العلاقات الأخوية معهم، وكان لكاتب هذه السطور من ذلك نصيب كبير ولله الحمد، وهذا من أسباب هذه الرحلة إلى سيبيريا

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

إلى مدينة توبولسك

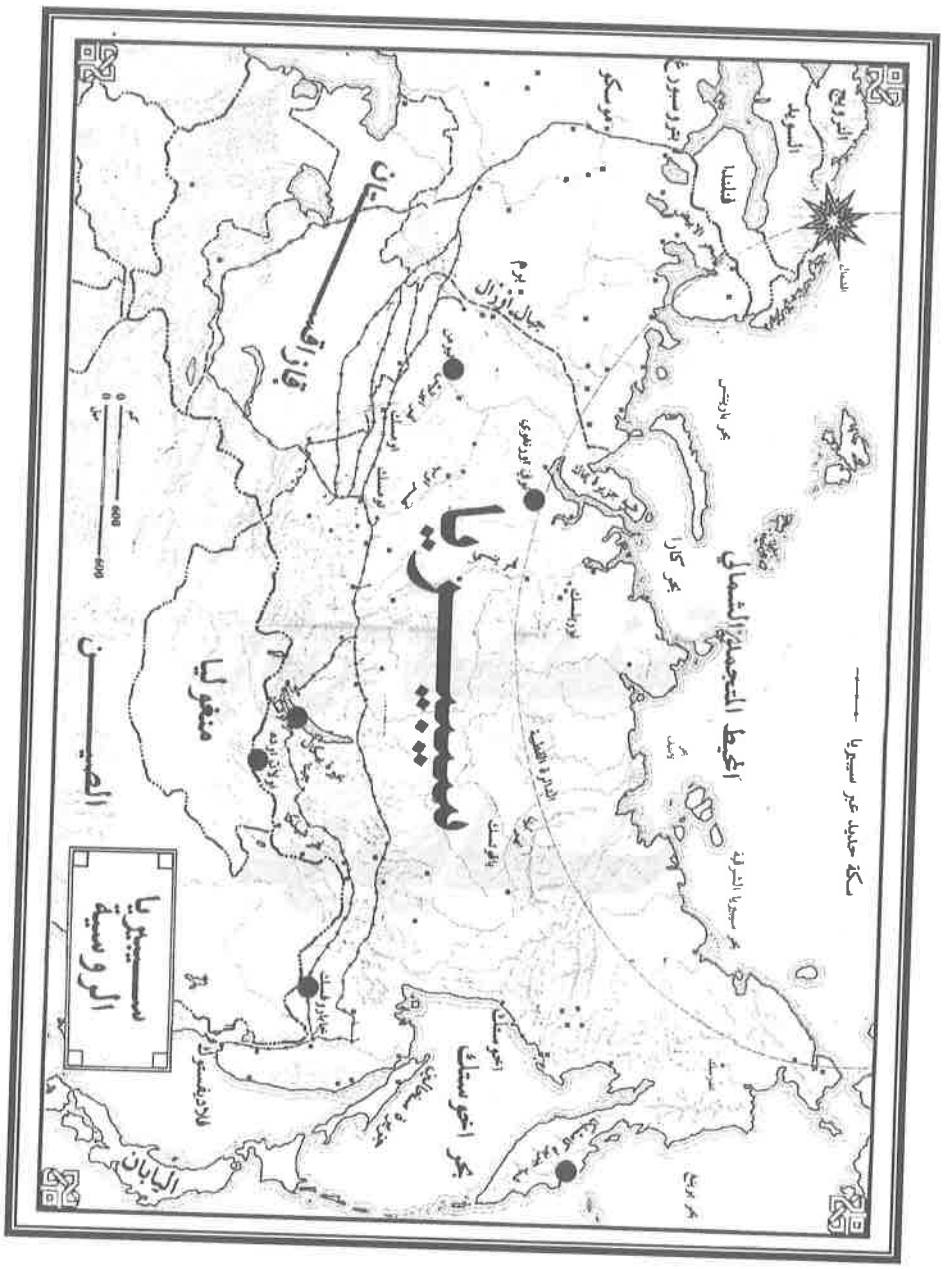

خريطة روسيا وتظهر فيها سيبريا

مدينة توبولسك: مدينة مهمة في منطقة سيبيريا الشمالية، لأنها قامت على أنقاض أو حواشي أنقاض المدينة الإسلامية (إسكير) التي كان اسمها (إسكي سيبير) أي سيبيريا القديمة، وكانت عاصمة لخانية تومين الإسلامية الواسعة، فحاربها المستعمرون الروس، وتغلبوا على أهلها بما كانوا يملكون من سلاح مادي فتاك، لم يكن المسلمون يملكون مثله، ولا يملكون الدفاع عنه في تلك العصور، إضافة إلى شيء مهم، ربما كان له الأثر الكبير في تغلب الروس على المسلمين، هو أنهم كانوا يعتبرون حربهم مع المسلمين حرباً دينية مقدسة، وكانوا بذلك يتحدون ويتعاونون في الوقت الذي كان فيه حكام المسلمين أو أكثرهم يهتمون بمراكزهم، ويتنازعون فيما بينهم، حتى وصل الحال ببعضهم إلى التعاون مع الروس ضد خصومهم من المسلمين، فكانت الكارثة.

ومدينة (توبولسك) منسوبة إلى نهر هناك يسمى (توبول)، والسين والكاف بالروسية تعنيان في هذا الاسم وأمثاله النسبة، مثل اسم المدينة الرئيسية الكبيرة غير البعيدة من جهة الجنوب عن توبولسك، وهي مدينة (أومسك)، فهي منسوبة إلى نهر (أوم) بالسين والكاف مثل هذه، وتبعد عن (توبولسك) ثمانمائة كيلو متر، وقد تكلمت عليها في كتاب « غرب سيبريا »، وتقع مدينة (توبولسك) إلى الشمال المائل إلى الشرق من مدينة تومين على بعد ٢٣٧ كيلو متراً.

وتكثر قرى المسلمين من التتار في المنطقة التي تتبع مدينة (توبولسك) هذه، وما قبلها من المنطقة التي تتبع (تومين)، لذلك سوف تكون زيارتنا لها زيارة أيضاً لعدد من قرى المسلمين التي فيها مساجد عامرة، والتي فيها مساجد تحتاج إلى المساعدة على تعميرها.

وسوف أقص عليك قصة سفرنا هذا منذ أن غادرنا مدينة (تومين) عاصمة إقليم تومين إلى توبولسك، حتى عودتنا منها بإذن الله، ثم أقص عليك - في هذا الكتاب - أيضاً قصة وصولنا إلى المدينة القطبية: (نوفي أورنغوي) وما شاهدناه في منطقتها.

يوم السبت ١١ ربيع الثاني عام ١٤٢٠هـ. ٢٤ يوليو عام ١٩٩٩م.

من تومين إلى توبولسك

غادرنا مدينة (تومين) في الساعة التاسعة إلا الربع من صباح هذا اليوم متجهين إلى مدينة توبولسك، وكان مرافقنا، بل كان نجم الرحلة إليها الأخ الشيخ نفيع الله عشيروف رئيس الإدارة الدينية للأقسام الآسيوية في روسيا، وهو من أبناء (توبولسك)، فقد ولد فيها، ونشأ فيها أيضاً، إلا أن إقامته الآن موزعة بين (تومين) حيث مقر الإدارة الدينية التي يرأسها، وفي موسكو حيث يوجد مقر مجلس التنسيق الإسلامي الأعلى في روسيا الذي يعمل فيه.

وهو نعم الرفيق في السفر، فقد كان لساننا الناطق، وسمعنا اللاقط فيها، وكنا صحبنا معنا مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في موسكو المهندس أحمد يوسف لغرض الترجمة، ولكننا بعد أن عرفنا أن الشيخ نفيع الله سوف يكون معنا أذنا له بالعودة إلى موسكو.

غادرنا مدينة تومين من شارع رئيسي في إحدى ضواحيها إلى الريف، وقد غرسوا على جانبيه أشجاراً سامقة الفروع، مستقيمة الجذوع، حتى كأنما هي من امتدادها إذا رأيتها على بعدٍ حائط أخضر، ومثل هذه الأشجار مما تسمى الأشجار الأسطوانية، لكونها تبدو كالأساطين أو الأسطوانات - جمع اسطوانة - وهي العمود.

وقد وقفنا في الريف فجأة بعد هذا الشارع الذي بدا هو نفسه كأنما هو في الريف، وذلك أمر عرفته من المدن الروسية التي نشأت أو توسعت في زمن الحكم الشيوعي، لأن الذي يخطط المدن، ويبني ما يبني منها هي الحكومة وحدها، دون الأفراد أو الشركات، فالحكومة لا تسمح لأي شخص أن يبني له بيتاً خاصاً في المدينة أو ضواحيها، وإنما تبني هي الأبنية

الكبيرة المتعددة الطبقات (العمائر) شققاً صغيرة، تؤجرها لعمالها وموظفيها، وأحياناً لسائر الناس من غيرهم، وأكثر الناس عمال وموظفون عند الحكومة الشيوعية، وهذه هي الطريقة الوحيدة لبناء المساكن الجديدة عند الشيوعيين، لذلك يعجب المرء منا إذا ما رأى مدينة من المدن الكبيرة وعرف أن مطارها لا يبعد عنها بأكثر من عشرة كيلو مترات، أو حتى سبعة، ثم رأى أنه يفصل بين المدينة ومطارها فاصل من الريف الخالي تماماً من المنازل.

وكثيراً ما كنت أفاجأ بأن أكون خرجت من المدينة إلى الريف مباشرة وبدون مقدمات، إذا لم يكن لتلك المدينة أحياء من (العمارات) الشيوعية الكثيرة في تلك الجهة.

إلا أنه مما ينبغي أن يسجل للشيوعيين أنهم لا يبنون المدن مركومة مجتمعة، إنما يجعلونها واسعة الرقعة، متسعة النواحي، يكون بين أحيائها فراغ تملؤه الأشجار المورقة في الصيف، الثالجة الهامدة في الشتاء، ويسجل لهم أيضاً أنهم لا يملكون الأفراد أراضي واسعة للبناء، بحيث يبنون فيها قصوراً، أو يتخذون فيها دوراً، فضلاً عن أن يستغلوها ببيعها على الفقراء المحتاجين للدور.

وهذا وقد قابلتنا جموع من السيارات في هذا الطريق الرئيسي الذي ذكرته قادمة من القرى القريبة إلى المدينة، وإن لم تكن في كثافة السيارات في مدننا وقرانا، بل هي أقل من ذلك بكثير.

قرية يمبا بيفا:

لم نمض بعيداً في سلوك الطريق الرئيسي حتى عطفنا منه إلى طريق إسفلتية فرعية تقصد عدة قرى صغيرة، معظمها للمسلمين، سنزور منها قريتين.

والقرى في هذه المناطق السيبيرية قليلة، ولكنها أحياناً لا تكون متباعدة، وذلك لكون الأرض باردة ثالجة لا يقدم على الهجرة إليها إلا من له مصلحة غالبة في ذلك، أو لديه ضرورة أجبرته عليه، ويكفي أن نعلم أن إقليم تومين الذي عاصمته مدينة (تومين) التي غادرناها تبلغ مساحته مليوناً و ٤٣٥,٢٠٠ كيلو متر مربع، وليس فيه من السكان إلا ثلاثة ملايين ونصف.

بدأنا أول الأمر زيارة قرية تسمى (يمبا بيفا)، فكان أول ما رأيناه منها منارة مسجدها التي هي أعلى بناء فيها، ترى شامخة سامقة على البعد، وقد رأيناها قبل أن نصل إليها بنحو كيلو متر واحد، وذلك لكون الأشجار العالية تحجب بعض الأشياء فيها، وإلا فإن القرية خالية من الأبنية المرتفعة، وبيوتها كلها من البيوت الخشبية التقليدية الشائعة الاستعمال في كل أنحاء سيبيريا.

ما عدا المسجد، فإنه مبني من الآجر، وأساساته من الحجارة، وقد بدأ البناء عندهم - على استحياء - بالآجر المربوط بالإسمنت، ولكن هذا يوصل البرودة داخل المنازل إلا إذا استعملوا عوازل الحرارة في البناء، وما هم بقادرين على ذلك في الوقت الحاضر.

ولا ينبغي للمرء أن يسارع فيظن أن الخشب الذي تتخذ منه البيوت، أو لنقل تبنى به البيوت، فهذا القول يجعل اتخاذ الخشب في البيوت بناء عربياً فصيحاً، لأن اللفظ استعمل في بناء البيوت بالشعر والصوف، أنه خشب معتاد، مثل الخشب الذي عندنا، فهو خشب خاص من أشجار معروفة عندهم يصلح للبناء، وغيره من الأخشاب يصلح للوقود ولا يصلح لبناء البيوت.

هكذا كانوا يعرفون في القديم حتى جاء العصر الحديث، فعرفوا

أن أنواعاً منه يصنع منها الورق، وتصدر إلى خارج البلاد.

قصدنا المسجد وكانت منارته تهدي من لا يهتدي اليه، مع أن مرافقنا هو الشيخ (نفيع الله) رئيس الإدارة الدينية التي تتبعها هذه القرية من الناحية العملية.

وقفنا عند المسجد ننتظر مجيء رئيس جمعية المسجد الذي معه المفتاح، ولو كان المسجد مفتوحاً، وهو لا يفتح في مثل هذه الساعة، لأنها ليست ساعة صلاة، والمسجد فيه فرش وأشياء ثمينة لما استغنينا عن الحديث مع رئيس جمعية المسجد في الأمور المتعلقة به.

كانت الشمس حارة، بل شديدة الحرارة في هذا الوقت المبكر من النهار، وفي هذا المكان البارد في أذهان الجميع (سيبيريا)، غير أن قسوة برده تكون في الشتاء، وأما صيفه فإنه حار وإن لم يكن في درجة حرارة البلدان العربية، لأن الهواء إذا تحرك كان بارداً، لأنه مشبع برطوبة لا سيما إذا عرفنا أن فصل الصيف هو فصل الأمطار.

تأملت المسجد من الخارج فوجدته قد بني على طراز المساجد العربية في العهد التركي، وقد طلوه بلون الرصاص، وكحلوه أي جملوا بعض جوانبه بأحمر، وقبته غير مرتفعة، بل هي كالقبعة، ومئذنته مثمنة الشكل إلا أن أعلاها أدق من أسفلها، ويعلوها شاهد فوقه هلال دون نجمة.

وقد لاحظت أن الإخوة المسلمين في هذه البلاد الروسية لا يضعون النجمة في قلب الهلال كما يفعل غيرهم من المسلمين في العالم الذين اصطلحوا على أن هذا هو شعار الأبنية الدينية عند المسلمين، في مقابل وجود الصليب عند المسيحيين، وقد سألتهم عن ذلك فأجابوا: إن النجمة صارت رمزاً للشيوعيين، حيث يضعون المنجل والمطرقة على هيئة سنبلتي

قمح وبينهما نجمة، ويضعون ذلك على رموزهم من التماثيل والأنصاب، وعلى الأبنية المهمة عندهم.

لذلك تجنب الإخوة المسلمون وضع النجمة داخل الهلال، واكتفوا بوجود الهلال وحده.

تمشيت قليلاً في شوارع القرية فوجدت بيوتها من طابق واحد وهي من الأخشاب، إلا أنها مدهونة بطلاء جعل من يراها يشعر بأنها من المسلح، وهذا في بعضها، وبعضها بقي من الخشب ظاهراً.

وحتى أسوار البيوت الخارجية فإنها من العيدان المهذبة، أو من الأخشاب التي نشرت على مستوى واحد، ويجعلونها حول البيت كالسور الخارجي للدارة (الفيلا)، ولكن الأفنية المكشوفة في بيوتهم ضيقة، إلا أنها تسمح بأن يكون فيها شجرة أو شجرتان، وكلها خضراء، لأن الأعشاب والنبات الوحشي وهو الذي لم يزرع يجللها كلها.

ورأيت بيتاً بني جديداً من الخشب، وقد صفوا الخشب المعد للبناء كما نفعل نحن بلبن البناء من الطين في القديم، ومن الإسمنت أو الفخار في الوقت الحاضر.

والأخشاب التي تبنى منها البيوت تكون مقصوصة مفصلة في منجرة أو نحوها قبل أن تصل إلى البيت، ورأيت أسلاك الكهرباء مرفوعة على خشب كما كنا نفعل في القديم، وكذلك أسلاك الهاتف، والهواتف عندهم قليلة الشيوع.

إلا أنني لاحظت أن الأخشاب التي تحمل أسلاك الهاتف والكهرباء لم يثبتوها في الأرض كما يفعل سائر الناس، وإنما صبوا عموداً من الإسمنت يرتفع متراً أو نحوه وهو مثبت في الأرض بشكل قوي لا نراه، ولكن ربما كانت له قاعدة إسمنتية، ثم حزموا أسفل العمود الخشبي

إليه، ولكنه أي العمود الخشبي يكون مرفوعاً عن الأرض بنحو ثلث المتر، ويحزمونه بحبال قوية من الحديد، وسبب ذلك هو كثافة الثلوج التي تسقط في الشتاء، بحيث إنها تفسد الخشب، أو تتسرب منها الكهرباء، أو خوفاً من الأرضة في الصيف من أن تأكل الخشب إذا كانت عندهم أرضة.

وتتميز هذه القرية قرية (يمبا بيفا) بأن فيها مسجدين بمنارتين بارزتين، وهذا قليل الوجود في المدن الروسية المتوسطة، فكيف بالقرى ؟ لأن الشيوعيين لم يكونوا يسمحون بذلك، وسوف يأتي الحديث عن المسجد الثاني فيها فيما بعد.

ولم أر في الشوارع القريبة من هذا المسجد أشجاراً مغروسة إلا واحدة، من أن وجود الأشجار لا يكلفهم شيئاً غير الغرس، لأن البلاد بلاد غابات ترويها الأمطار في الصيف والثلوج في الشتاء.

وجميع الأشجار الموجودة التي يراها المرء هنا هي غير مثمرة، لأن هذه المنطقة الباردة لا تنتج من الفواكه شيئاً لشدة البرد في الشتاء.

وإنما ينتفعون من الأشجار بأخشابها، وذلك خلاف منطقة (ما وراء النهر) كما كان يسميها مؤرخونا الأوائل، ويريدون بها ما وراء نهر جيحون الذي يعرف الآن باسم (أمودريا)، فإنها تنتج أنواعاً متنوعة من الفاكهة، بل تجود فيها الفاكهة.

ولكن عجبي تجدد من كثافة الأعشاب عندهم، ولا يستفيدون منها إلا استفادة محدودة للمجتهدين والعاملين الذين يحشونها ويدخرونها علفاً في الشتاء.

تاريخ المسجد:

حضر أخونا رئيس جمعية المسجد واسمه (نظيم بن نجيب الله أوغلو) هكذا قال، إذ استعمل اللغة التتارية القريبة من التركية، وفيها (أوغلو) بمعنى (ابن) كما هو معروف، وأما الروسية التي هي اللغة العامة الشاملة في هذه المنطقة فإنها تقول في مثل اسمه إذا كان (نجيباً) هو اسم أسرة نجيبوف، وقال: بني هذا المسجد قبل (١٢٠) سنة، وهو بهذا الشكل حتى منارته سلمت من الهدم والتكسير، وهو من أول بنائه بالآجر كما ترونه الآن قد صادره الشيوعيون في عشر الثلاثين من هذا القرن الميلادي، وحولوه إلى مدرسة للموسيقى حتى استعاده المسلمون في عام ١٩٨٩م.

وقال: بناه رجل كبير من أهل المنطقة مع أنه لم يحج ولم يخرج من مدينة (تومين)، وذكر أن اسمه مسجد الكبير، دخلنا المسجد فألفيناه نظيفاً ذا فراش مرتب، قال الأخ نظيم أو ناظم: إن زوجتي تعتني بالمسجد، فهي تنظفه وتفرشه.

ثم أضاف: إنني متقاعد عن العمل، وزوجتي متقاعدة أيضاً، ولذلك نستطيع أن نخدم المسجد.

وذكر أن المسجد يحتاج إلى إصلاح سقفه لأنه قد خرب، وذكر أنه يحتاج إلى طن من الحديد، وإلى بعض الخشب، وأن تكلفة ذلك تزيد قليلاً على الألف دولار، فأعطيناه الألف الدولار تبرعاً من رابطة العالم الإسلامي، ورأينا المسجد مثل غيره فيه أنابيب المياه الحارة اللازمة للتدفئة، ولكن بشكل أكثر ظهوراً.

ويبلغ عدد سكان القرية خمسة آلاف نسمة، أو قل خمسة آلاف شخص ٢٠٪ فيهم من الروس، وسائرهم من التتار، ويريدون بالروس غير المسلمين، وهم الروس ومن التحق بهم من الأوكرانيين والروس البيض،

وبقولهم من التتار المسلمين، لأن التتار مسلمون.

وعندما استولى الشيوعيون على المسجد وصادروه كان المصلى أوسع مما هو عليه الآن، لأنهم بنوا في آخره غرفاً، قال رئيس الجمعية: إننا لم نغيرها لأن المصلى الآن كافٍ، وإذا احتجنا إلى زيادة أماكن للمصلين هدمنا جدران الغرف ووسعنا بها المصلى.

مع إمام المسجد:

ذهبنا مع رئيس الجمعية الإسلامية إلى بيت إمام المسجد، فوجدناه يستعد لحش العشب، لأن لديه ثلاث بقرات وثوراً واحداً، وهو بهذا يكاد يكون فريداً بين أئمة المساجد والعاملين فيها، لأنه يسعى لتحسين دخله عن طريق العمل، وقال: أنا أقطع الحشيش لأخزنه علفاً للماشية في الشتاء.

فقلت له: إن هذا هو الذي ينبغي أن يفعله غيرك من المسلمين، فقال: الناس تعودوا على أن تقوم الحكومة عنهم بكل شيء، وأن يعملوا موظفين لديها.

ومن مظاهر نشاط الإمام الشخصي أننا رأيناه زرع ما كان خارجاً عن مدخل بيته بطاطس، ومساحته صغيرة، لكن البطاطس لا تكلف زراعته شيئاً غير التعهد والملاحظة، فالسقي من المطر، وإذا احتبس المطر في الحالات النادرة أمكنه أن يسقيه من ماء البئر أو نحوه، مع أن الآبار عندهم قليلة.

وقد جاءت زوجته وهي مسنة

وذكر أن معاشه التقاعدي هو (٣٦٠) روبلاً، أي نحو خمسة عشر دولاراً أمريكياً في الشهر، أو (٥٥) ريالاً سعودياً، وهو مبلغ ضئيل لا سيما مع غلاء الأسعار المستشري الآن عندهم، وكان يعمل سائقاً قبل تقاعده.

وكرر قوله: إن المسلمين لا يجتهدون بالزراعة، وبعضهم يشربون الخمر، ولا يأتون إلى الصلاة، وهذا أمر منكر. قلت: إن ما ذكرته صحيح، والمطلوب منك وأمثالك مناصحة المسلمين وحثهم على فعل الخير، وقد بلغنا أن بعضهم لا يصلي. قال: نعم، وبخاصة الشباب. قلت: الشباب أولى بالنصح والإرشاد، لأنهم رجال المستقبل، ولكونهم نشأوا في هذه الفترة التي ضعفت فيها الشيوعية ثم اضمحلت.

وقد عزم علينا أن نأكل في بيته شيئاً، وكنا أفطرنا في الفندق، غير أنه تبين أن مرافقينا الشيخ (نفيع الله) وسائق السيارة لم يكونا كذلك، فأحضر فطائر وبيضاً وقشطة ثم الشاي.

واحتاج أحدنا إلى الحمام فوجده مثل مراحيض ما وراء النهر، حفرة في الأرض عليها ما يشبه الكرسي بدون أرجل من الخشب، وفيها ثقب ينزل منه الأذى إلى الحفرة، وله رائحة خبيثة، لأنه غير موصول بأي مجرى من المجاري، وهو كالمعتاد عندهم قد جعلوه في الحوش بعيداً عن البيت، فما يفعل من يحتاج إليه في الشتاء إذا كانت درجة الحرارة ٤٠ تحت الصفر؟

مسجد نعمة الله:

انطلقنا من مسجد الكبير إلى المسجد الثاني ذي المئذنة الشامخة أيضاً، واسمه: (مسجد نعمة الله)، ولكنه وهو مسجد في كل شيء إلا في الحقيقة، فقد عطل عن الصلاة فيه بحجة أن المصلين من أهل القرية يكفيهم المسجد الأول، وإنما يستعمل الآن مدرسة إسلامية يصلي فيه تلاميذها دون غيرهم.

ذكروا أنه مبني منذ (١٠٨) سنين، بعد أن أصبح مسجد الكبير الذي هو الأول يمتلئ بالمصلين ويضيق عن استيعابهم، وهو الآن لا يمتلئ

بهم، وذلك أن كثيراً من المسلمين الذين تربوا في عهد الإلحاد الشيوعي قد كسلوا أو تكاسلوا عن أداء الصلاة.

وعلى هذا المسجد لا فتة بالعربية: (الإدارة الدينية لغرب سيبيريا منطقة تومين، مدرسة نعمة الله فيمبا بيفا)، وتحتها ترجمتها باللغة التتارية، ولكن بالحروف روسية.

و(نعمة الله) الذي ينسب إليه هو مسلم مشهور بعمل الخير، حتى قيل إنه بنى سبعين بيتاً لإسكان فقراء المسلمين في القرية عندما أصاب بيوتها حريق.

وكان هذا المسجد قد صادره الشيوعيون أيضاً، ثم استعاده المسلمون بعد أن أخذوا المسجد الأول، ولم يهدم الشيوعيون منارته، لأنه تبين لنا أنهم لا يهدمون المساجد، وإنما يضعون فيها ما يشاؤون من الأشياء التي يحتاجونها، وفي كثير من الأحيان يهدمون المنارة.

وللمسجد حديقة واسعة ذات أشجار ضخمة، مما يدل على قدم غراسها أو استنباتها، فيها واحدة ذات جذع غليظ اسمها (توبل)، التقطت صورة تذكارية عند جذعها.

وقد سلمت الساحة الكبيرة التابعة للمسجد من الاعتداء، وبقيت للمسجد بخلاف الأول مسجد الكبير، فقد اعتدى عليها الناس بإذن من الدولة التي ألغت وجود المسجد فيما زعمته ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾.

ولكن مما يؤسف له أننا رأينا بيتاً لأحد المسلمين: قالوا إنه بناه في أرض المسجد، ولم يستطيعوا إخراجه منه، والمقصود أنه بناه في أرض كانت تابعة للمسجد، وتعتبر مجاورة له الآن.

هذا وأرض المسجد وحديقته التي يقع في وسطها محاطة بسور قديم قوي لم يتغير منذ أن بناه بانيه الأول الحاج نعمة الله، وقد بناه بطريقة فنية- والمراد بذلك السور الخارجي - حتى إنه جعل في أعلى حيطانه (شنوفاً) مثلما كنا نسميها في بلانا ونزين بها جدرنا عندما كنا نبني بيوتاً من الطين، وهي مثلثات بارزة من الطين يجمع بين أسافلها خط.

هذا ولا تبعد قرية (فيمبا بيفا) إلا (١٩) كيلو متراً من مدينة تومين عاصمة إقليم تومين الكبير، وقد يستغرب القارئ الكريم الذي عاش في بلاد الأكثريات المسلمة أن نهتم بأمور المساجد بهذه الطريقة الموسعة، ولكنه لو تمعن في حال هذه البلاد التي كانت بحكامها وشعبها مسلمة، بل من بلاد المسلمين الأصيلة، لعرف سبب ذلك، وتعتبر حداً للبلاد الإسلامية من جهة الشمال، مع أن حدودها الشمالية هي حدود القطب الشمالي حيث لا تغيب الشمس في الصيف، ولا تطلع في الشتاء.

وقد ابتليت بالشيوعية الملحدة طيلة (٧٣) عاماً، كثف الملحدون جهودهم في نزع الإيمان من النفوس، بل في تشويه سمعة الدين والمتدينين بالشبهات، مع منع التدين بالقوة.

ويكفي أن نشير إلى قانون كان صدر في الاتحاد السوفيتي الواسع حول الدين يقول: إنه لا يجوز للمؤمن أن يدعو إلى الإيمان، أو يمارس العبادة إلا في داخل المعبد، والمعبد في بلاد المسلمين هو المسجد، ولكن المساجد كانت قد صودرت إلا مسجداً واحداً يكون في المدينة، يؤمه كبار السن العاجزون عن عمل أي شيء، ويقول القانون: إنه يجوز لغير المؤمن أن يدعو إلى الإلحاد في كل مكان إلا في داخل المعبد !.

أرأيت هذا الانحياز للإلحاد وعدم الإنصاف بين الفريقين: فريق المؤمنين وفريق غير المؤمنين.

ولإيضاح ذلك نقول: إنه لا يجوز للمسلم أن يمارس العبادة كأن يصلي في حديقة، أو حتى في الخلاء على العشب وإلا اعتبر مخالفاً للقانون، وعوقب العقاب الشديد.

وهناك شيء أفظع من ذلك، وهو أن بعض المسلمين سجنوا سنتين، وبعضهم أكثر من ذلك لكونهم كانوا استمعوا إلى إذاعة دينية تبث من خارج الاتحاد السوفيتي.

لذلك كان الحديث عن المساجد التي تبنى، أو المساجد التي استعيدت وترمم حديثاً يشبه الكلام عن الإسلام عامة، ولاسيما أن المسجد هو المؤسسة الوحيدة التي تعتني بأمور الدين، أو لنقل إنها الوحيدة التي تمارس فيها شعائر الدين الإسلامي، فلا توجد مدارس إسلامية، ولا نوادٍ إسلامية ثقافية، ولا جرائد أو مجلات إسلامية في مناطق المسلمين، ويدل وجود المسجد في قرية من القرى أو مدينة من المدن على نشاط المسلمين في تلك القرية أو المدينة، كما يعتبر دليلاً على اتجاه أهلها إلى التدين، أو لنقل إنه رجوع إلى الأصل، وإن كان ذلك بصفة جزئية بالنسبة إلى أهل القرية وعدد من يصلي منهم الآن، وبالنسبة إلى أخذ المصلين بجميع فرائض الدين.

وهذا هو سبب اهتمامنا بالمساجد، وتقديم المساعدات لإكمال بنائها، أو لتمكينها من أن تؤدي الغرض النبيل لإنشائها.

استئناف السير:

غادرنا قرية (فيمبا بيفا) في العاشرة سالكين الطريق الرئيسي الذي جئنا منه، ممعنين في الابتعاد عن مدينة تومين، وهو الطريق المحاط بالأشجار النضرة التي كثيراً ما تكون خلفها أشجار تؤلف غابة أو جزءاً من غابة.

الريف بين مدينة تومين ومدينة توبولسك

والجو صحو، ودرجة الحرارة اليوم (٣١) درجة مئوية، وهذه إذا صحبتها الرطوبة كانت ثقيلة.

أما السيارات في الطريق فإنها قسمان، أولهما: السيارات الخشنة التي كانت يصنعها الاتحاد السوفيتي، ويراها المرء أكثر من غيرها من السيارات في طرقه الخارجية مثل هذا، كما كنت رأيتها كذلك عند زيارتنا الأولى للاتحاد السوفيتي عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

والقسم الثاني: سيارات الركوب، وأكثرها (لادا)، وتشبه الفيات الإيطالية قبل أن يطورها الإيطاليون.

ثم وصل بنا الطريق إلى منطقة من الحقول قد قطعت منها أشجار الغابات، وفيها زهور صفر جميلة، وهي حقول كبيرة تملكها الدولة دون غيرها، لأن الحكومة لم تقم بتوزيع الأراضي على الناس حتى الآن.

ومررنا بقرية روسية بيوتها أسوأ من بيوت القرى المسلمة، وقد ذكر

لي الإخوة أن القرى الروسية أفقر من قرى التتار المسلمين، وعللوا ذلك بأن الدولة ممثلة في الإدارات الحكومية والإدارات الأخرى كانت في العهد الشيوعي تجامل الروس وتساعدهم عندما كان كل شيء بيد الحكومة، أما الآن فقد انقطع ذلك، وصار على أهل كل قرية أن يساعدوا أنفسهم.

أما المسلمون فإنهم قد اعتادوا على الاعتماد على أنفسهم في خدمة قراهم، وفي السعي لمعيشتهم، واسم القرية الروسية هذه (ويلجاني).

ورأينا بعدها سرحاً من البقر بادروا بقولهم: إنها خاصة للناس، وليست حكومية، وإنما يجمعها الراعي من أهلها من البيت بقرة أو بقرات ويرعاها ويتعهدها مقابل أجر معين ضئيل.

قرية الإوزّة السوداء:

وقفنا عند قرية اسمها (قاس قرا) ومعناه: الإوزة السوداء باللغة التتارية التي هي ذات أصل تركي قديم، وذلك لرؤية مسجدها ومعرفة أحوال المسلمين فيها معرفة ميدانية مباشرة، ورفيقي الأستاذ (رحمة الله بن عناية الله) يعرف اللغة التتارية، إلى جانب المساعدة على ما يحتاجونه لمسجدهم.

وكان وقوفنا عند مسجدها، فكان في الاستقبال إمام المسجد الأخ (ولي الله بن فَسْح الله)، وولي الله معناه واضح، وإن كان فيه تبجح ينبغي أن يبتعد عنه من كان تقياً، مع العلم بأن الأخ الذي يحمل هذا الاسم في الوقت الحاضر لا يعرف معناه، أما اسم والده فإنه واضح أيضاً، وإن كانت التسمية به غريبة، ولا أعلم أحداً من العرب تسمى بـ (فسح الله) الذي هو من الفساحة والسعة والامتداد، وكأنما كان أصل التسمية التفاؤل بأن يفسح الله في أجل الشخص المسمى، بمعنى يطيل عمره.

ومن الطريف أن أحدنا ظنها (فتح الله)، فصححها الإمام وقال: لا،

هي فسح الله.

والإمام كبير السن، ولكنه نشيط، ذكر أن عمره (٧٨) سنة، ويساوي ذلك نحو (٨٠) سنة عندنا، أي بالتقويم القمري، ومن الدلائل على كونه كبير السن أن في جيبه ساعة ذات سلسلة قد ربطها في صدريه.

ويبلغ سكان قرية (قاس قرا) (٨٥٠٠) نسمة (٤٠٪) منهم من التتار أي من المسلمين، وسائر سكانها من الروس، مع أنها كانت قرية إسلامية خالصة، وحتى اسمها فإنه تتاري عريق، ولكن الروس سكنوها وتكاثروا فيها من دون أن يستطيع المسلمون أن يعملوا أي شيء ضدهم.

وعلق أحد شيوخ القرية: وقد تكاثروا عندنا بأن الموظفين الكبار كلهم من الروس، ولم يكن يوجد مسلم له وظيفة مهمة في القرية، إنما كانوا يوظفون المسلمين حراساً ونحو ذلك.

وعلق أحدهم على ذلك بأن قال: لقد استولوا علينا.

اللافتات والكتابات بالعربية وحدها في مسجد (قاس قرا) في سيبريا

ومما ينبغي ذكره هنا أن عدد المسلمين التتار الذي كانوا أهل الحكم في سيبيريا قبل الروس لا يصل إلى ١٠٪ من مجموع السكان، فهناك القازاق وهم جماعات مسلمة مهمة، ولكنهم أقل عدداً من التتار فيها، أي أن المسلمين الآن هم أقلية في بلادهم.

ولم يكن مع إمام المسجد مفتاح له، فأرسل إلى الفرّاشة وهي عجوز كبيرة ثقيلة، فتحت لنا باب المسجد ووقفت ناحية مع عدد من الأخوات المسلمات المسنات، وكلهن ثقيلة في الوزن.

قال الإمام ومعه ستة منهم: نحن نصلي الجماعة، ونصلي الظهر بانتظام، وأما الأوقات الأخرى فغير منتظمة.

فقلت له: إنه لا يجوز لكم أن تتركوا صلاة الجمعة وأنتم قادرون عليها، وينبغي لكم أن تصلوا جميع الصلوات في المسجد، لا سيما وأنت متقاعد، والأخت التي تفتح المسجد وتنظفه متقاعدة.

وقد كتبوا على باب المسجد من الخارج بالعربية وحدها: (اللهم أفتح لي أبواب رحمتك)، وهو جزء من دعاء دخول المسجد، كما أن اللافتات التي على محراب المسجد كلها بالعربية، ليست معها لغة أخرى، لا لغة القوم من التتار، ولا لغة البلاد الرسمية الفعلية وهي الروسية، ومنها البسملة أي: (بسم الله الرحمن الرحيم)، والشهادتان: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وسورة الإخلاص كاملة.

حدثونا عن تاريخ هذا المسجد، فذكروا أنه مسجد قديم من الخشب، هدمه الشيوعيون في عام ١٩٦٦م، ثم بني من حديد وفتح عام ١٩٩٢م.

وقد كتبوا على حائط المصلى من الداخل ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة

وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ وتحتها (يا مسبب الأسباب) وكل هذا بالعربية وحدها.

وهذا يرمز إلى معنى عظيم يجب على كل عربي أن يتنبه له، وهو فضل الدين الإسلامي على العرب والعربية، حيث إن أي مسلم على وجه الأرض سواء أكان بعيداً بعداً فاحشاً عن بلاد العرب، أم أقرب من ذلك لا بد أن يتعلم شيئاً من اللغة العربية ويستعمله في عبادته كالصلاة وإن أي شخص غير مسلم إذا اسلم تعلم بعض الجمل والكلمات بالعربية .

وهذا شرف للعربية لم تحظ به أية لغة أخرى، هذا بالإضافة إلى أمر مهم أيضاً، وهو أن أي مسلم مخلص لإسلامه يتمنى أن يعرف العربية أو قدراً منها ،. وطالما سمعنا المسلمين الصادقين يقولون ذلك.

وأذكر أنني لاقيت مرة أخاً مسلماً جديداً في (ليما) عاصمة بيرو في أمريكا الجنوبية، ومعلوم أن (ليما) تقع على شاطئ المحيط الهادئ، قال لي وقد أسلم حديثاً: إنني أرجو أن تدعو الله تعالى لي في الحرم المكي الشريف أن أكون قادراً في يوم من الأيام على فهم القرآن الكريم من غير ترجمة.

وهذا المسجد النائي في قرية نائية من قرى سيبيريا الثالجة، تجد كل اللوحات فيه مكتوبة بالعربية، ومع ذلك نرى الواقع المؤسف، وهو أن كثيراً من العرب يتقاعسون عن تشجيع الدعاة إلى الله، وتجد الأثرياء منا الذين لا يستطيع أكثرهم أن يعرف مقدار ثروته لكثرتها لا يتبرعون لبناء المسجد هنا أو المساعدة على إكماله.

ومن الطبيعي أن نقول: إن الخير كثير في أمة محمد، ولكن بعض الإخوة المسلمين الأثرياء لا يعرفون مقدار حاجة إخوانهم المسلمين في العالم للمعونة التي نقصد بها المعونة على المؤسسات والمساجد، وليس على إعانة

فقراء المسلمين المحتاجين، فتلك مسألة أخرى.

ونعود إلى الحديث عن الإمام الأخ (ولي الله فسح الله) فنقول: إنه ذكر لنا أنه كان قبل تقاعده يعمل في تربية الحيوان وصيد السمك للحكومة، ومن الطبيعي القول بأن مثله في ظل الشيوعية لم يخرج من ذلك بشيء من المال، لأنه لا أحد يستطيع أن يملك شيئاً.

وتجولنا في المسجد مع الإخوة من أهل القرية الذين كثر عددهم ما بين رجال ونساء، فرأينا منبر المسجد من الخشب الساذج الخالي من النقوش أو التزويق، إلاّ شرفات في أعلاه صغيرة، شكلها شكل الشرفات التي تكون في أعلى حيطان المنازل، وهو أبيض وشرفاته المذكورة مصبوغة باللون الأخضر.

السبح من نوى التمر:

رأيت في هذا المسجد شيئاً لطيفاً من بين ما رأيناه فيه من الغرائب، وهو أن السبح - جمع سبحة - وهي الخرزات المنظومة في سلك، ويسبح بها بعض المسلمين بعد الصلاة، بمعنى يعدون فيها التسبيح والتحميد، وهو: (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) هي من نوى التمر التي خرقوها بخرق لطيف في كل نواة، ونظموها في سلك جعلوا عددها كسبح الخرز (٣٣)، ولما سألتهم عن السبب في ذلك قالوا: لأن التمر هو طعام أهل الجنة.

وقال أحد المرافقين: هذا ورد في الحديث أن التمر من طعام أهل الجنة.

فقلت له: إنني لم أسمع بهذا حديثاً مرفوعاً، ولكن إذا ثبت هذا عندكم، وهو غير ثابت، فإن هذا هو نوى التمر.

ثم إن الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذه الأعين، ومن ذلك التمر

إذا اشتهاه أهل الجنة، لأن الحال في الجنة ليس كالحال في الدنيا، بمعنى أن الذي يأكل فيها شيئاً لا يحصل له ما يحصل لمن يأكل شيئاً في الدنيا، كأن يحتاج إلى ما يخرج بقاياه من الأذى ونحوه، فقد ورد في الحديث أن ذلك ينضح من أجسامهم نضحاً.

و(النضح) هو خروج الماء ونحوه من وعائه من غير مخرجه، ومن غير شق فيه، ومنه الجسم الذي ينضح بالعرق، أي يخرج من مسام فيه دقيقة.

وظني أن لأمر ليس لمجرد ما ذكروه، وإنما لكون التمر في القديم كان يقدم به حجاجهم من مكة المكرمة، فاعتادوا على ذلك، واعتقدوا فيه أنه أحسن من غيره لهذا الغرض.

وإلى جانب السبح من نوى التمر وضعوا في المسجد شيئاً معتاداً في بعض المساجد، وبخاصة مساجد أهل الهند، وهو الطواقي - جمع طاقية يعني القلنسوة - يضعها على رأسه من يريد ألا يصلي حاسر الرأس.

أردت التقاط صورة مع الإمام في محراب المسجد على عادة لي قديمة عند زيارة المساجد، فانضم إليه رجلان، ثم كثر المنضمون، ثم أقبلت النساء أيضاً وشاركن رجالهن، وقد طلبت النساء أن تكون لهن صورة خاصة بهن مع الوفد، وكلهن من المسنات الثقيلات ما عدا اثنتين، ولكن من اللطيف في الأمر أنهن كلهن على وجه التقريب يلبسن الملابس الوطنية التتارية المغايرة لملابس الأوروبيات.

وقد جلسنا في المسجد، وألقيت فيهم كلمة بلغتهم فيها تحيات إخوانهم المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذكرت لهم أننا من رابطة العالم الإسلامي، وأننا قدمنا إلى هذه المنطقة لنزورهم ونرى مسجدهم، وأعلنت لهم تبرعاً من الرابطة للمسجد بألفي دولار أمريكية، وهو مبلغ له خطره في بلادهم، لأن رواتبهم ضئيلة، والدخول غيرها لغير

الموظفين ضئيلة أيضاً كما هو معروف، كما أعطينا الإمام ألف دولار له خاصة، وأعلنا لهم ذلك، لأنه يصلي متبرعاً لمدة طويلة.

وأخبرونا بأن المسجد بني من التبرعات الشخصية وتبرعات المؤسسات العامة، وكذلك من إدارة القرية.

ثم دعا الإمام بدعاء لم نفهم منه شيئاً قالوا: إنه بالتتارية، إلا أنه عقبه بدعاء بالعربية لم نفهمه أيضاً، لأنه كان يغمغم ببعض الكلمات التي ربما كان لا يحسن أن ينطق بها.

وقبل المغادرة ألقيت نظرة على ما حول المسجد من القرية، فوجدت أنها واقعة على نهر أقيمت عليه القرية اسمه (قاس قرا)، أي الإوزة السوداء، قالوا: سمي بهذا الاسم لأن الإوزة السوداء تقع فيه.

وهذا يدل على كثرة الأنهار الصغيرة عندهم، وإلا لكان له اسم غير هذا الاسم المستوحى من كون الإوز الأسود يقع فيه، لأن هذه هي طبيعة الإوز أسوده وأبيضه أن يقع في الأنهار والبحيرات

جنة طيورها الغربان:

عندما رأيت سيبيريا في هذا الصيف الذي هو ربيعهم ذكرت الجنان المونقة، والمراد بذلك جنان الدنيا التي ذكر لله سبحانه وتعالى واحدة منها في قوله تعالى: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ والمراد بذلك الحديقة كما هو معروف.

وقال لي: أحد الإخوة - وصدق فيما قال -: إن سيبيريا جنة أرضية في هذه الأوقات، فقلت له: نعم إنها جنة باردة، أي في الشتاء.

ولكن لم أرَ طيوراً في هذه الجنة بل الجنان الأرضية، وسألت الإخوة عن ذلك، فذكروا أنه يوجد عندهم نوع من العصافير، ولكنني كنت

أسأل عن غير ذلك، وبخاصة من الطيور المهاجرة، فذكروا بعضها، إلا أنني لم أرَ شيئاً من الطيور مطلقاً إلا طيراً غير مرغوب فيه، سواء من حيث لونه أو صوته، أو حتى مشيته، ألا وهو الغراب، فهو هنا كثير، وظني أنه مهاجر يبتعد عنها في الشتاء، ليس ذلك من أجل البرد الذي يصيبه فحسب، وإنما هو أيضاً في عدم وجود الغذاء، فكل شيء فيها يدفنه الثلج.

وكنت رأيت أسراباً من الغربان في مطار موسكو قبل سنتين فعجبت من كثرتها التي لا أذكر أنني رأيت لها نظيراً إلا في الهند، فهي بحق بلد الغربان، إذْ يراها المرء في كل مكان حل فيه في الهند، حتى في المدن تكون في الأحياء السكنية وبين العمارات.

ذكرت هذا عندما فارقنا قرية الإوزة السوداء، واستمر سيرنا في الطريق الذي يشق غابات ملتفة، أو مساحات من الحقول الخضر، أو من الأراضي المجللة كلها بالأعشاب النضرة، ولم أرَ فيها من الحيوان إلاّ سرحاً من البقر، وهي التي يجمعها الراعي من أهلها ويرعاها، مع أنها لا تحتاج إلى البحث عن المرعى، وإنما من أجل أن يذودها عن الأماكن المزروعة، أو يرتاد موضعاً دون آخر من مواضع الرعي.

أما الطريق فإنه واحد للسيارات الذاهبة والآيبة، مفصولاً بينها بخط أبيض من الصباغ، ويعتبر لا بأس به بالنسبة إلى الطرق الروسية، وسيارتنا من طراز فولقا الروسي الصنع، وهو أحد طرازين شائعين في روسيا وما كان يتبعها في الاتحاد السوفيتي، هما (لادا) و(فولقا) هذه، وهي أغلى وأفخم نسبياً من (لادا).

هذا وقد وصلنا إلى منطقة من الغابات الكثيفة التي هي الأصل في طبيعة الأرض هذه، وما عداها من الحقول قد غير عن أصله، فقطع

شجره، وأزيلت الغابة منه.

ورأيت في هذا الطريق بائعات لأشياء زهيدة، وهن متفرقات في الطريق يبعن أشياء لا تستحق عندنا أن ينفق شخص وقته في بيعها؟ وحتى لو كانت كلها مكسباً، فإنه مكسب زهيد.

وقد جلسن في الشمس فلسعت خدودهن، بل وما ظهر من أجسامهن، وما ظهر منها أكثر مما بطن، فأصبحت كأنما هي بشرات المترفات من الأوروبيات الغربيات، لأنها أخفت الصفرة التي خلعها عليهن نقص الغذاء، أو سوء الغذاء، بل أصبحت جلودهن في لون الذهب، أو لون اللهب.

ورأيت بعضهن قد وضعت بضاعتها على الطريق، وانصرفت إلى ظل الأشجار في الغابة مما يلي الطريق، حتى إذا وقفت عليها سيارة أسرعت إليها، ولم أرَ سيارات تقف عندهن إلا قليلاً.

هذا والشمس اليوم حارة، وربما لا يجد المرء فرقاً بينها وبين شمسنا في الصيف، إلا أن الهواء غير ذلك، فإنه إذا هبت الريح كانت باردة.

وهذا سبب ظاهر في وجود الخضرة الكثيرة من الأشجار والأعشاب.

ومن المناظر الأخرى في الطريق منظر حصان يجر عربة نقل خشبية، وقد ركب فيها راكبان أبيضان، وكل الناس هنا بيض، وسيارة واقفة قد ظللها أهلها بقماش أبيض ليقيها الشمس، وسيارة أخرى من سيارات النقل قد اصطف العمال فيها صفاً في ظلها يتقون الشمس مع أن الساعة الآن هي الحادية عشرة.

ورأيت لأول مرة عصافير واقفة على سلك من أسلاك الكهرباء: المرفوعة على أخشاب، كنت رأيت مثل هذه العصافير في مدينة (أومسك) فلم أجد فيها فرقاً عن العصافير الدورية الموجودة في بلادنا.

وسائق سيارتنا هو أخ تتاري اسمه (بتروس)، وهذا اسم روسي وسببه أن أمه روسية وأباه تتاري، وله زوجة روسية له منها بنت متزوجة من تتاري مسلم.

واختلاط التتار المسلين بالروس بالزواج سبب مشكلة كبيرة لا يزال المسلمون في سيبيريا وما قرب منها، بل في كل روسيا، يعانون منها، وذلك بأنهم تطبعوا بطباع الروس، فصاروا لا يتناسلون إلا نسلاً قليل العدد، عديم الثقافة.

وصار بعضهم يذوبون، لأن الجيل الثاني والثالث من المختلطين مع الروس يصبح بحيث لا يرى فرقاً بين الفريقين، لا سيما في زمن الإلحاد الشيوعي الذي جعل الحديث في الدين من المحرمات.

وقد قال لنا إخوتنا العاملون في الشؤون الدينية وهم يذكرون هذا الأمر: إننا بدأنا بتوعية المسلمين بخطورة ذلك على أنسالهم، بل على وجود بعضهم.

فقلت لهم: يجب عليكم أن تعملوا على تشجيع الزواج بين المسلمين، وأن تحثوهم على الإكثار من النسل لمقاومة سياسة التذويب الروسية التي سلطت على المسلمين، فكانت النتيجة أن قل عدد التتار حتى صاروا أقلية عددية ضئيلة في بلادهم.

هذا وقد وصل الطريق إلى منطقة من الحقول قطعوا غاباتها، ولكن بقي التمييز بين الخضرة الطبيعية وبين خضرة الحقول، وهو أمر صعب، لأن الأعشاب البرية النامية تطاول خضرة الحقول المزروعة.

قرية صغيرة:

يعجب المرء من وجود الروس في هذه القرى السيبيرية الشاقة في

الشتاء، وقد أخبرني الإخوة أن الروس يسكنون فيها لأن أرضها خصبة، ويمكنهم أن يربوا الماشية فيها، وهم يربون الخنزير كثيراً، لأنه يعيش على أكل القمائم والأوراق المتعفنة إذا لم يجد غيرها.

وتسمى هذه القرية الروسية (اوصاوكا)، وهي ذات بيوت تقليدية وهي الخشبية المتطامنة ذات السقوف من الصفيح، وتكون في الغالب رمادية اللون، يستوي في ذلك سقفها الذي يكون قد حال لونه إلى رماد، وخشبها إذا لم يتعهدوه بالطلاء والعناية كذلك، وهم في الغالب لا يتعهدونه.

ولاحظت في أكثر قرى الروس أنها أقل نظافة من قرى المسلمين، فقد يجد المرء القمائم فيها متروكة، وهي على نهر صغير اسمه (بيرو) يتجمد في الشتاء مع غيره من الأنهار والبحيرات.

وأما القرب من النهر فإن معظم قرى التتار المسلمين تكون أيضاً على أنهار، أو بالقرب من الأنهار، مع أن الأنهار تتجمد في الشتاء كما قلت، إلا أن النهر إذا كان كبيرا تجمد أعلاه وظلت أسافله تجري، فيحفر أهل المنطقة فيه بئراً حتى يخترقوا الثلج ويصلوا إلى الماء، ومثل ذلك صيادو السمك الذين يحفرون في النهر المتجمد حفرة، ويدخلون منها شباكاً خاصة عندهم للصيد تحت الثلج، وعلى وجه الدقة نحو الجمد، وهو الماء المتجمد، وليس الثلج النازل من السماء، وإن كان ثلج السماء ينزل عليه فيختلط به.

دائرة ياركوفا:

الدوائر الإدارية في هذه البلاد الروسية شبيهة بالمناطق التي يكون لها مركز معين من المدن أو القرى الكبيرة، ومن ذلك دائرة (ياركوفا) التي وصلناها بعد أن قطعنا مائة كيلو متر منذ أن غادرنا مدينة (تومين)، فانتهت عند هذا الحد دائرة تومين، وابتدأت دائرة (ياركوفا)، مع العلم

بأن (تومين) هي عاصمة إقليم أكبر وأشمل يسمى (إقليم تومين)، تكاد تبلغ مساحته مساحة فرنسا وبريطانيا وألمانيا، أما الدوائر فإنها ضيقة صغيرة بالنسبة إلى الأقاليم، ومع ذلك يكون بعضها في مساحة بعض الدول الصغيرة كهولندا ولبنان.

ومن الطريف في المقارنة بين لبنان وإقليم تومين هذا الذي نحن فيه أن سكان لبنان هم ثلاثة ملايين ونصف على المقل من الأقوال، ومساحته عشرة آلاف وأربعمائة كيلو متر مربع، وإقليم تومين هذا سكانه أيضاً ثلاثة ملايين ونصف من البشر، ولكن مساحته تبلغ مليوناً و٤٣٥ ألفاً ومائتي كيلو متر مربع.

بلدة ياركوفا:

وصلنا بلدة ياركوفا التي هي عاصمة إدارة (ياركوفا)، واسمها تتاري كان(ياركو)لفظ عند التتار، ولكن الروس زادوا فيه (فا) فصار (ياركوفا).

وكانت في الأصل قرية تتارية مسلمة، إلا أن الروس كاثروهم عليها فغلبوهم عدد ياً فيها، ثم نزل فيها بعض التتار حتى ألفوا ٣٥٪ من سكانها.

وقفنا عند أول مسجد بني بعد ذهاب الشيوعية، وبالنظر إلى كون الأكثرية من سكانها من الروس، فقد عارض بعضهم وجود المسجد في البلدة، على اعتبار أن أكثرية سكانها من الروس، لكن المسلمين برئاسة الأخ الكريم (بايزيد) الذي رأيناه أمس في جامع تومين قاوموا ذلك، ونجحوا في تأسيس المسجد بالقرية، لأن الأخ بايزيد كان رئيس الدائرة فيها، وبصفته تلك التي يعتمد فيها على انتخاب المواطنين من مسيحيين ومسلمين، وضع خطة لبناء المسجد، وهو أن يضع حجر الأساس للمسجد والكنيسة في القرية في آن معاً، لأن القرية لم تكن فيها كنيسة من قبل.

المؤلف على يمينه الشيخ نفيع الله، ثم عاملان مسلمان من الذين يعملون في المسجد، في محراب المسجد الذي لم يتم بناؤه

مع العلم بأن الدعم الحكومي لإنشاء مسجد أو كنيسة لا يتعدى منح الأرض بالمجان، وقد بذل المسلمون جهداً كبيراً في بناء المسجد حتى قطعوا مرحلة منه، أما الكنيسة فإن الروس لم يبذلوا جهداً في بنائها، لأنهم كانوا ينتظرون أن يجدوا متبرعين ببنائها من خارج القرية، وبقيت دون بناء حتى الأيام الأخيرة التي بدؤوه فيها.

أقبلنا على المسجد فشاهدناه على البعد شامخاً مرتفعاً على أكثر بيوت القرية، وإن كان لم يستكمل بناؤه بعد، وقال لنا عمال يعملون فيه من داغستان وتاجيكستان المسلمين: إنه ينتظر أن يتم بناؤه في شهر أغسطس، غير أننا نظن أن هذا الموعد لا يمكن لإنهاء البناء.

ولما سألهم مرافقنا الشيخ (نفيع الله) عن كون العمال فيه كلهم من المسلمين من أماكن بعيدة هي داغستان وتاجيكستان أجابوا بأن العمال

الروس هنا لا يعملون عملاً جدياً، لأنهم يشربون الخمر بكثرة فتلهيهم عن ذلك.

ويبنونه بالإسمنت المسلح والآجر.

وقال الشيخ (نفيع الله) وهو يشير إلى جانب من أرض المسجد: في الشتاء الماضي صلينا في أرض المسجد سروراً وفرحاً بقرب بنائه، ففرشنا السجاد على الثلج وصلينا فوقه، وقال: وقد جمعنا لهذه المناسبة أكبر عدد ممكن من المسلمين، وصلينا بهم تثبيتاً لأرض المسجد، وإظهاراً للمعارضين بأن هناك أعداداً كبيرة تطالب ببنائه.

مع الأخ عبد الواحد بن عثمان باسنو كايف رئيس جمعية ياركوف بالقرب من المسجد

وتقع أرض المسجد بالقرب من بحيرة جميلة، ضفافها معشبة مثل أرض المسجد وسائر الأرض هنا، وعشبها هو عشب الربيع الذي لا يفترق

عن عشب الربيع في بلادنا، إلا بكثافته وغرابة بعض النبات فيه بالنسبة لما عرفناه من عشبنا، إلا أن الأزهار البرية الصفر والبيض تكثر فيه الآن مثلما تكثر في بلادنا في الربيع.

مع رئيس جمعية المسجد:

من اللافت للنظر أن رئيس جمعية المسجد الذي هو في الحقيقة يتولى القيام على بنائه، ويسعى في إكماله، هو أخ مسلم من غير أهل هذه الناحية، إذْ طلبنا أن نرى رئيس جمعية المسجد، وذلك من أجل الحصول على بعض المعلومات منه، ولندفع له شيئاً من المساعدة المالية العاجلة على بنائه أسوة بجميع المساجد التي رأينا أنها تحتاج إلى مساعدة.

فصحبنا بعضهم إلى بيت وجيه، رأيناه على البعد مبنياً بآجر أبيض مكحل بأحمر، وهو من طابقين، وسقفه من الصفيح اللامع على هيئة سنام.

والصفيح اللامع هو صفيح خاص مقاوم للصدأ، رأيناه فوق أبنية عديدة، ومنه يجعلون أعالي المنارات وبعض القباب في المساجد.

استقبلنا رئيس جمعية المسجد الأخ عبد الواحد بن عثمان باسنوكاين من الأنقوش الذي تقع بلادهم في جبال القوقاز مجاورة لبلاد الشيشان، وهم من رعايا روسيا مثل أهل هذه البلاد، وقال بالعربية: مرحباً، قال: استوطنت هذه المنطقة في عام ١٩٩٧م، وفي البداية كان البرد شديداً جداً بالنسبة إلينا، مع أن بلاده جبال القوقاز تعتبر باردة، بل ثالجة في الشتاء، ولكنه برد دون برد.

قال: وبعد ذلك ألفت العيش فيها حتى صارت لي أحسن من بلادي الأصلية (انقوشيا).

وعرفنا أنه مواظب على الصلاة، وأنه يقرأ القرآن بالعربية، وإن كان لا يفهم معانيه .

قلت له: إنه من حسن حظ المسلمين في هذه المنطقة أن تكونوا هنا، وذلك في الوقت نفسه من حسن حظك، لأنك استطعت أن تعمل عملاً صالحاً يبقى لك سمعة حسنة في الدنيا، وجزاء عظيماً في الآخرة، وما عند الله خير وأبقى.

صعدنا معه إلى الطابق الثاني من بيته مع درج خارجي قصير، ثم دخلنا مع باب حديدي ثقيل، فخلعنا النعال، وصعدنا مع درج خشبي إلى قاعة الجلوس في الطابق الأعلى، فوجدنا فيها أثاثاً جيداً، وقد علق على حائطيها سجادتين كبيرتين، وفيها تلفاز ملون، وحيطانها مكسوة بالورق المزين بالألوان، وقد علق فيها أيضاً لوحة تمثل قبة مسجد قديم.

حدثنا عن بناء المسجد هذا، فذكر أن أكثر النفقة عليه من دار البر في دولة الإمارات العربية المتحدة، قال: وإذا احتجنا إلى المزيد من الإنفاق على بناء المسجد جمعناه فيما بيننا، لأننا نريد أن نؤكد أننا رجال نستحق المسجد، فلا نطلب كل ما نحتاجه من غيرنا.

فقلت له: إذا كنتم تحتاجون إلى نفقة للمسجد للمساعدة على البناء فإننا مستعدون أن نعطيكم الآن شيئاً من ذلك من رابطة العالم الإسلامي. قلت له: وحتى إذا كان لديكم ما يكفي لبناء المسجد نفسه، فربما تحتاجون للمساعدة على بناء المنارة، وتسوير أرض المسجد أو نحو ذلك، فقال: المسلمون ٣٥٪ من سكان البلدة، وعددهم (١٢) ألفاً، فلا يعجزون عن توفير ذلك للمسجد.

وظني أن (دار البر) في الإمارات تعهدت لهم بما يكفي الجميع، لذلك لم يرد أخذ شيء منا، مع أن هذا لو فرض وقوعه، فإنه لن يمنع بعض

الناس أمثاله من أن يأخذ هذا وغيره، ويجري فيه تحسينات على المسجد، ولكن بعض المحسنين في بلادنا مثل مؤسسة آل إبراهيم يشترطون على من يطلب منهم أن يبنوا له مسجداً أن يكون المسجد كله بنفقتهم، لا يشاركهم في ذلك غيرهم، فلعل أولئك منهم، أو لعل الرجل أراد أن يكون ذلك منه احتساباً للأجر، لأنهم ذكروا لنا أنه تاجر، وأن الشيشان والأنقوش التجار في هذه الديار الشمالية لديهم ثروات جيدة، وقد قابلنا منهم عدداً بعد ذلك حتى في بلدة (نوي أرنغوي) آخر المعمور من الأرض جهة الشمال.

حديث عن بلدة ياركوفا:

تبعد بلدة ياركوفا عن مدينة تومين (١٢٠) كيلو متراً، وهي بلدة قديمة ذات تاريخ قديم نسبياً، حدثنا بعض الحاضرين في مجلس هذا الأخ الأنقوشي الكريم، وقد أبى إلا أن نشرب الشاي والقهوة عنده، وقدم بعض الطعام الخفيف، أن بلدة (تومين) هذه هي محطة المنفيين الذين كان الشيوعيون الروس ينفونهم إلى الشمال البارد.، وقالوا: إنهم ينفونهم إلى سبيريا الشمالية هذه من أجل أن يموتوا من دون أن يقتلوهم بسيوفهم.

وذكروا أنهم يجمعونهم في سجن مدينة (توبولسك) التي نحن ذاهبون إليها، ثم يرمونهم في هذه البقاع الباردة بلا استعداد للبرد من منازل وملابس كافية مدفئة ضد البرد.

وذكر أحد الإخوة الحاضرين من الأنقوش أن عدد المنفيين من الأنقوش إلى سبيريا بلغ (١٧) ألفاً، مات منهم (٩) آلاف، بينهم علماء ممن كانوا حجوا مشياً على الأقدام إلى مكة المكرمة.

وقال: والأخ عبد الواحد وغيره من الإخوة المسلمين يسمعون: إن المنفيين إلى سبيريا لم يعد منهم أحد إلى بلاده الانقوش، فربما تكون لهم

ذرية لا نعرفها، فسيبيريا واسعة، وآنذاك لم يكن الناس يعرفون الجهة التي تفي إليها أقاربهم، ولا توجد أية وسائل اتصالات، ولو وجدت لما استطاعوا إليها سبيلاً، لأنها لا توجد إلا عند الحكومة التي تنفيهم، وهي لا تمكنهم منها.

وقالوا: كان الشيوعيون يستدعون الإنسان من بيته، فيأخذونه وينفونه رأساً من دون أن يتمكن حتى من الرجوع إلى بيته.

وفي عام ١٩٤٤م نفوا جميع الشيشان والأنقوش نفياً جماعياً إلى قازاقستان التي هي ذات برد قارس، وفيها مجاهل غير مأهولة، ولكنها أهون من سيبيريا. قالوا: وقد عادوا الآن إلى بلادهم في منطقة القوقاز.

أقول: إن نفي الأنقوش والشيشان إلى قازاقستان أمر معروف للجميع، ومعروف تاريخه، وحتى تفاصيل المصاعب والمصائب التي أحاطت بالمنفيين وصارت معروفة الآن، فمثلاً كانوا يجمعونهم وينقلونهم بالقطارات أو سيارات الشحن، ومن مرض منهم لم يعالجوه، ومن مات اضطر ذووه إلى رميه من القطار لتأكله السباع والطيور الجارحة، لأن الشيوعيين الحاكمين لا يقفون لهم لدفنه في الأرض.

قالوا: وكانوا يأخذون الرجل المتزوج من روسية من بيته وزوجته فينفونه دونها، أما إذا كان روسي تزوج بشيشانية فإنهم ينفون زوجته ويتركونه.

ومن الطريف أنه رد على هاتف في بيته ثم جاء إليَّ يقول: إن أخي طالب في الأزهر في مصر، وإنه على الهاتف، فأرجو أن تكلمه بالعربية لأنه يعرفها، وكلمته فوجدته يعرف العربية جيداً، وقلت له صادقاً: إننا دعونا أخاكم للحج وللعمرة على ضيافة الرابطة، وإذا جئت معه فإنه لا مانع.

وسألته عن عمله؟ فقال: التجارة، وقال أحد الحاضرين: إن الناس الآن قلت في أيديهم النقود، وسيبيريا فيها ذهب كثير، فالذي يتاجر معهم يستطيع أن يأخذ الذهب بدلاً من النقود، لا سيما إذا كان يحسن تهريب الذهب إلى خارج المنطقة.

مواصلة السير:

ودعنا أهل (ياركوفا)، وواصلنا سيرنا في أراضٍ معشبة عشباً كثيفاً بزهوره البرية الجميلة، وكان أهل(ياركوفا)قد أخبروني أن المطر هذا العام هو كثير أكثر من غيره من الأعوام السابقة، ولكنه توقف قبل عشرة أيام، ونحن الآن على بعد (١١٠) كيلات من هدفنا الذي هو مدينة (توبولسك).

ولم أجدهم يحشون هذا العشب في هذه المنطقة، وربما كان ذلك لكثرته عندهم كما قال المثل العامي عندنا: « إذا كثر خير الله قلت رعاته »، ورعاته جمع راعية، وهي التي ترعاه من الماشية، يراد أنه يبدو كما لو كان لا يرعاه أحد.

ثم وصلنا إلى منطقة تتارية مسلمة، بمعنى أن أكثر القرى فيها هي للمسلمين التتار.

وتكاثفت الغابات عندها حتى أغلقت النظر تماماً إلا للطريق الذي بدت بجانبه كأنها الحصون العالية.

ومررنا بنهر صغير عنده جماعة من المتنزهين فيما يبدو، لأنهم كانوا أوقفوا سياراتهم فيه، وبقوا حولها، وهذا الطريق الذي نسلكه إلى (توبولسك) يذهب شمالاً بعدها، وهي تقع إلى الشمال المائل قليلاً إلى الشرق من (تومين)، وربما يصل هذا الطريق إلى منطقة القطب الشمالي التي سيأتي الحديث عن المدينة القريبة منه، وهي التي سنزورها بعد توبولسك وتومين بإذن الله.

الحدود الإدارية لتوبولسك:

قبل وصول لمدينة توبولسك بـ (٣٠) كيلو متراً وصلنا إلى حدودها الإدارية، وهي المناطق التي تتبعها إدارياً.

وفي هذه المنطقة حقول قمح شتوي واسعة، وهي كلها حكومية، وعادتهم أن يزرعوا القمح قبل الشتاء، حتى إذا نبت حل الشتاء، ونزل عليه الثلج فغطاه، حتى يخيل لمن يراه، أنه لا يرجى له نشور ولا أثر، وإذا تولى الشتاء، وانقشع الثلج، بدأ يورق من جديد، بل خرج قوياً واستمر في النمو، تساعده على ذلك أمطار الصيف.

ورأينا هنا على البعد قرية من قرى الروس الصغيرة، بعدها أخرى صغيرة، ومن الغريب أنهم وضعوا محطات انتظار الحافلات في هذه المنطقة السيبيرية الباردة مفتوحة للهواء، مع العلم بأن درجة البرودة قد تتدنى في الشتاء في هذه المنطقة إلى (٤٠) درجة تحت الصفر.

والقياس أن نكون مغلقة إن لم تكن مدفأة.

وهنا سألت الشيخ (نفيع الله) والأخ الذي معه عن الناس أيستطيعون العمل في النهار في الشتاء ؟ فذكروا أنهم يعملون، ولكنهم لم يذكروا نوع العمل، كما أنه من الملاحظ أن النهار يكون في الشتاء في هذه البلاد قصيراً جداً لقربها من القطب الشمالي قرباً نسبياً.

وما من شك بأن المصانع يمكنها أن تعمل عملاً كاملاً في الشتاء، وكذلك المدارس والمرافق الحكومية، لأنها كلها تكون فيها تدفئة كاملة، لكن أن يعمل المرء في الشتاء في العراء خارج المباني، فذلك ما أشك فيه، إلا أن يكون عملاً متقطعاً، لأن البرد الشديد يوقف تدفق الدم في العروق.

كما أنه خطر جداً على الأطراف البارزة، مثل الأنف والشفتين التي فيها شعيرات دموية كثيرة تحتاج إلى دم ساخن يصل إليها، وقد يقال: إن الدم يصل إليها من داخل أجزاء الجسم الدافئة من خلال الدورة الدموية، وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكنه يبرد مع شدة البرد بمجرد أن تلامس الهواء الشديد البرودة، وينزل عليه الثلج غزيراً متراكماً.

ومررنا بمقبرة للروس صغيرة على أيمن الطريق، يجعلون على كل قبر أو قبرين ريما يكونان لقريبين أو زوجين، حائطاً من الأسلاك الحديدية القوية يحجزه عن بقية القبور.

ولاحظت أنهم لا يضعون الصلبان على القبور إلاّ نادراً، ولا شك في أن ذلك أثر من آثار النفوذ الشيوعي الذي يحارب كل ما يرمز إليه الدين أيّ الدين، حتى وضع الصلبان على القبور.

ومع ذلك رأيت صليباً كبيراً من الخشب موضوعاً في وسط المقبرة ليس على قبر بعينه، وربما كان واضعه من المسيحيين المتدينين، وليست له قرابة بأحد المدفونين.

ومما يذكر أن قبور المسيحيين في العالم يكون عليها في العادة صليب، سواء أكان منصوباً أو موضوعاً فوق القبر أو منقوشاً على شاهده. وفي مقابل ذلك يجعل المسلمون الهلال الذي بداخله نجمة بديلاً عن ذلك، إلا في روسيا حيث يجعل المسلمون الهلال، ولا يضعون معه النجمة.

نهر إيرتيش:

نهر إيرتيش من الأنهار المعروفة المشهورة في هذه المنطقة، وهو نهر كبير يكون في حجم نهر دجلة، أصغر من نهر النيل بكثير، وقد تعدت شهرته هذه الأقطار السيبيرية، حتى وصلت إلى البلدان العربية في القديم، فذكره المسعودي

قبل ألف عام أو تزيد باسم نهر (إيرتيش)، أي باسمه هذا إلا أنه قال: إنهما نهران (إيرتيش) الأبيض، وإيرتيش الأسود.

المؤلف عند إيرتيش قرب توبولسك

وقد ذكرت ذلك في كتاب « غرب سيبيريا » عند الكلام على مدينة (أومسك)، وقلت: الظاهر أن (إيربتش) الثاني الذي ذكره المسعودي هو نهر (أوم) الذي أضيفت إليه مدينة (أومسك)، فهو مع (إيرتيش) في المنطقة، ويجتمعان في مدينة (أومسك) حيث يصبحان نهراً واحداً هو إرتيش.

وتسمية (إيرتيش) من اللغة التركية القديمة التي لا تزال مستعملة حتى الآن في اللغة التتارية، ومعناها فيها: (حافر الأرض)، لأن (أير): أرض، وتيش: يحفر، أو حافر.

هذا ولم يبق إلا قليلاً على الوصول إلى مدينة (توبولسك)، لذلك رأينا أهلها كتبوا اسمها (توبولسك) في مكان عالٍ، وبحروف روسية كبيرة، وقد كتبوه على صفحة تلة أرضية عالية، يراها من يقدم إلى المدينة عن

بعد.

هذه توبولسك:

وصلنا إلى مشارف مدينة (توبولسك) ولم نصل إلى المدينة نفسها، وهنا رأيتهم أقاموا مركزاً للشرطة لمراقبة الداخلين إليها قد وضعوا فيه حواجز خرسانة، حتى لا يتسع عند المركز لمرور أكثر من سيارة واحدة، ولكنهم لم يوقفوا سيارتنا ولم يسألونا عن شيء.

ولم نرَ عند حد المدينة هذا أي أثر للمنازل، وإنما هي الغابات العذراء الكثيفة.

وأول ما رأيناه من المدينة ونحن نقبل عليها مدخنة مصنع عالية، غير بعيدة من المدينة، على العادة التي رأيناها في المدن الروسية ألا تكون فيها مناطق صناعية مخصصة للصناعة بعيدة عن المدن.

وأول ما استرعى انتباهي عند الدخول إليها هو أنابيب المياه الحارة الضخمة التي ترسل الحكومة بها المياه الحارة اللازمة لتدفئة البيوت والمصانع والمؤسسات الحكومية تدفئة عامة، وقد دخلنا تحت اثنين من هذه الأنابيب الضخمة التي يجعلونها في ظاهر الأرض، ولا تكون عندهم في باطنها أبداً، وإذا اعترضها طريق مثل الشارع الذي سلكناه الآن جعلوا منها ما يشبه البوابة فوق الشارع.

إحدى وخمسون درجة تحت الصفر:

إن مدينة (توبولسك) هذه جديرة بالاستعداد لشتائها، فقد أخبرني مرافقنا الشيخ نفيع الله عشيروف، وهو من أهلها مولود فيها أن درجة البرودة تدنت فيها في العالم الماضي إلى (٥١) درجة مئوية تحت الصفر، وأن ذلك ليس بالمعتاد، وإنما المعتاد أن تكون في حدود (٣٥) إلى (٤٠) درجة

تحت الصفر.

وهذا الرقم المخيف في البرودة لا يفوقه في المدن التي زرناها في سيبيريا إلا ما ذكره الإخوة المسلمون في مدينة (نوفي ارنغوي) التي سنزورها فيما بعد، وأن درجة البرودة عندهم وصلت في تدنيها العام الماضي إلى (٦٠) درجة مئوية تحت الصفر، وقال أحدهم: إنها وصلت إلى (٦٠) درجة، وهذا أمر معروف عنها، إذْ ما أن يذكرها لنا أحد حتى يذكر هذا الرقم المفزع لدرجة البرودة فيها في الشتاء.

سرنا أول الأمر مع شارع في توبولسك عليه صف من الأبنية الضخمة (العمائر) التي كانت الحكومة الشيوعية تبنيها لتؤجرها شققاً صغيرة على العاملين فيها وغيرهم بأسعار محدودة، لا يزيد على ما تستطيع دخولهم أن تتحمله، وذلك أن الحكومة الشيوعية تعتبر نفسها مسؤولة عن إيجاد المساكن للناس، لأنها كانت قد صادرت جميع الممتلكات إلا ما كان للاستعمال الشخصي، كأن يكون عند شخص بيتان، فإنها تأخذ أحدهما وتترك له الأخر، وفق خطة موضوعة لذلك.

ولذلك لا يستطيع أحد أن يبني بيتاً خاصاً في المدينة، كما لا يستطيع شخص أو شركة إقامة أبنية سكنية للاستغلال.

كان الشارع الذي سلكناه واسعاً جداً، وتزين جوانبه حواشٍ من الفراغ قد لفتها الخضرة ببسط خضر جميلة وإن كانت وحشية، بمعنى أنها لم تزرع ولم تهذب.

وكان وصولنا إليها في الثالثة إلا ربع.

عطفنا من الشارع العام الواسع إلى شارع عليه مبانٍ قديمة منفردة، أي كل بيت منها منعزل وحده، وهذه هي الطريقة القديمة لبناء البيوت في المنطقة.

وكل هذه المباني والمنازل من الخشب الذي أثرت فيه العوامل الجوية فصار رماديَّ اللون، كئيب المنظر.

المدينة القديمة:

بدأنا الانحدار في منطقة منخفضة مع شارع جيد، إلا أنه غير واسع، أسمه (ريمبزونا)، وتحف به من الجانبين أشجار وارفة الظلال، وتكاد تختفي البيوت الشعبية الخشبية المنفردة خلف تلك الأشجار، ورأينا كنيستين (روسيتين)، وهذا اصطلاح في تعريف الكنيسة بأنها روسية، يدل على أنها أرثوذكسية على المذهب الروسي، ولو افترضنا أن هناك جماعة من الروس يعتنقون المذهب الكاثوليكي، أو على حد تعبير بعضهم (الدين الكاثوليكي)، وبنوا لهم كنيسة، فإنه لا يقال لها كنيسة روسية، ولو كان أهلها من بناة ومتعبدين فيها هم من الروس، لأنهم ليسوا على المذهب الأرثوذكسي الذي له رئاسة منظمة، ولمعتنقيه في مسيحيتهم طقوس تخالف ما يعتقده أو يعمله أهل الكنائس الآخرون من عبادات في كنائسهم.

وتتميز الكنائس الروسية على البعد بطلاء أزرق، وبطلاء ذهبي على أعاليها، مثل رأس البرج والقبة.

مسجد توبولسك:

قلت في نفسي وأنا أرى هاتين الكنيستين: أين المسجد في هذه المدينة التي كانت لزمن طويل عاصمة من عواصم الإسلام في الشمال البارد، ولم أكد أتم هذه الجملة حتى رأيت منارة المسجد عالية شامخة، تكاد تتحدى أبراج الكنائس في علوها وسموقها، وإن لم تكن مثلها في زينتها وتزويقها.

وجدنا في الاستقبال عند باب المسجد ثمانية من الإخوة المسلمين

المنتظرين كان مرافقنا المفتي الشيخ (نفيع الله) قد هاتفهم بذلك من (تومين).

ثم دخلنا معهم إلى المسجد فوجدنا فيه طائفة من النساء أكثرهن من المسنات الثقيلات، وفيهن عدد محدود من الشابات، وقد جئن فيما يظهر لحضور اللقاء بوفدنا وفد مكة المكرمة كما سموه في بعض كلامهم. والمسجد مبني على الطريقة الإسلامية الشمالية، بحيث جعلوه عدة أقسام يدخل من قسم منها إلى قسم، فأول ما دخلناه قسم غير واسع، فيه مكتبان، أحدهما رأينا فيه نساء يعملن في خدمة المسجد، وربما كن من المدعوات لحضور الاجتماع مع وفدنا في المسجد، وبعده قسم آخر، ثم القسم الكبير الرئيسي.

وقد ذكروا لنا في غير هذا المسجد أنهم وضعوه هكذا، يسمون القسم الأول الذي هو الأمامي الذي فيه المحراب مصلى الفرض، وبعضهم يقول مسجد الفرض، لأنه تصلى فيه الصلوات المفروضة، والذي بعده مصلى السنة، لأنهم يصلون النافلة التي هي السنة فيه.

وفي مؤخرة القسم الأمامي ستارة تصلي خلفها النساء، وهذا أمر جيد خلاف ما صار أهل بعض البلاد يفعلونه من جعل النساء فيما يشبه القبو، أو المكان البعيد المنفصل عن مصلى الرجال بطابق أو أبنية كثيرة، لا يصلهن بالإمام من خلفه إلا المكبر.

وهذا خلاف السنة التي عرفناها من فعله ﷺ؛ حيث تكون النساء في المسجد خلف الرجال، ولذلك قال النبي ﷺ: (خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها).

قال العلماء: إن ذلك لكون صف الرجال الأخير، وصف النساء الأول

يرى بعضهم بعضاً، ولا ينبغي أن يسارع بعض أهل الورع بالقول: إننا نريد بذلك المصلحة الإسلامية، وسد الذرائع الموصلة للفساد، فلو كان خيراً لسبقونا إليه، ولو كان ذلك غير جائز لما أقره ﷺ وهو أعلم بما يصلح هذه الأمة رجالها ونساءها منهم.

أما من الناحية العملية، فإن هذا كان بدأ عندنا في الرياض وغيرها، فصاروا يجعلون في المساجد الجديدة مصلى النساء منعزلاً عن مصلى الرجال، بحيث لا يرين الرجال ولا يرونهن، ولا يربطهن بالإمام ومن خلفه من المأمومين إلا مكبر الصوت، وأخبرنا عدد من ثقات نسائنا أنهن كثيراً ما يختلط عليهن الأمر في التكبير، فلا يميزن بين تكبيرة القيام وتكبيرة النهوض من السجود، ولا بين تكبيرة السجود وتكبيرة الركوع.

وفيما يتعلق بالإخوة في هذه البلاد الروسية، فإن الرجال يعرفون النساء فيها خارج المسجد أكثر مما يعرفهن أهلوهن، فلا يكون في عزلهن في الصلاة هذا العزل غير المشروع إلا تشويه صورة الإسلام في نفوسهن، ونفوس غير المسلمين، وتصديق ما يقوله المفترون الكذابون عن الإسلام من كونه يحتقر المرأة، ويرى أنها أدنى منزلة، وأحط شأناً والله أعلم.

وقد احتاج أحدنا إلى دخول الحمام، فرأى أن حمام المسجد قسمان، قسم للوضوء قريب من المسجد، بل هو في ركن منه، وهو خاص للوضوء، أما القسم الآخر المتعلق بالبول والغائط فإنه بعيد عن المسجد كالعادة في هذه البلاد الشمالية الباردة، والعجيب هو صبرهم على بعده في الشتاء القارص البرودة.

وقال لي بعضهم: إن الناس يصبرون على ذلك، لأن الرائحة تؤذي المصلين، والرائحة تكون في طريقتهم القديمة هذه، وكانت هي طريقتنا

في القديم، غير أننا كنا لا نستعمل الماء في المراحيض بخلافهم، وإنما نستعمل اليابسات في الاستجمار، وإذا وجدت رطوبة في بيت الخلاء وضعنا عليه رماداً يمتص الرطوبة. أما أهل هذه البلاد الشمالية الباردة فإنني لم أرهم يضعون عليه شيئاً من ذلك، وربما كان لبرد الجو أثر في عدم تكاثر الجراثيم ونحوها، ولا توجد مجارٍ للمياه المستعملة في أكثر المدن وفي القرى هنا، ولكنهم لو عرفوا الطريقة التي كنا نستعملها قبل أن يعم استعمال المجاري في المدن، ولا تزال نستعملها في القرى فهي سهلة، وهي أن يستعملوا ما يعرف بالحمام العربي الذي يعزل ما يكون داخل المرحاض من الأسفل الخارج بعازل من الماء، يمكن أن ينظفه دافع الماء المسمى بـ (السيفون)، ولكن إمكاناتهم المادية و الإدارية لا تسمح لهم بذلك فيما يظهر.

وقال الخيال: إن أهل هذه البلاد الباردة لا تتوافر لهم الخضرات التي نسهل حركة الأمعاء، لذلك لا يحتاجون للذهاب للخلاء بالكثرة، وبعدد المرات التي يذهب بها غيرهم، مما يشبه أن يكون حالة العرب قبل الإسلام، وحتى بعده في القرى والمدن الصغيرة، حيث لا توجد المراحيض في البيوت، وذلك وارد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت في سياق حديث الإفك: (والبيوت يومئذ ليس فيها مراحيض)، وإنما كان الناس لقلتهم وبخاصة النساء يذهبن في الصحراء خارج القرية في الليل، خاصة لذلك الغرض.

جلس الرجال من المسلمين وأغلبهم من كبار السن، وفيهم شبان، وجلست النساء المسنات ناحية، أما الشابات فإنهن بقين يراقبن الموقف من بعيد من دون أن يجلسن معهن.

حديث المسجد: ؟

بدأ الحديث مع هؤلاء الإخوة المسلمين عن المسجد أول ما بدأ الحديث عن الشؤون الإسلامية التي هي الهدف من زيارتنا لهذه المدينة،

فذكر أنه الوحيد في المدينة، وأنه لا يوجد مسجد آخر غيره، وأنه مسجد تاريخي كان بدء في بنائه عام ١٨٩٥م، وانتهى في عام ١٩٠٥م، فصادره الشيوعيون، وهدموا منارته، واتخذوه نادياً شيوعياً تتارياً، ثم جعلوه داراً للسينما، واسترجعه المسلمون في عام ١٩٨٧م وبنوا منارته من جديد.

ثم صلينا الظهر جمعاً وقصراً مع العصر، وصلى معنا بعضهم ممن لم يكونوا صلوا الظهر، وهم ممن حضروا بعد أن صليت الظهر في المسجد.

وبعد الصلاة طلب مني الأخ الشيخ نفيع الله أن ألقى كلمة في هؤلاء الإخوة الذين هم متشوقون إلى أن يسمعوا كلمات من إخوتهم المسلمين من أهل مكة المكرمة، فألقيت فيهم كلمة مبسوطة ترجمها الشيخ نفيع الله للتتارية التي يعرفونها لأنهم من التتار، وقد بدأتها بحمد الله تعالى وشكره الذي قدر لنا هذا الاجتماع المبارك بالإخوة الكرام من مسلمي مدينة (توبولسك)، ونقلت إليهم تحيات إخوانهم في المملكة العربية السعودية وعلى رأسهم خادم الحرمين الشرفيين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله.

وقلت لهم: أن البعد في المكان عن مكة المكومة والمدينة المنورة لا يضر عند الله، لأن الله سبحانه وتعالى معبود في كل مكان، وهو يعلم سر الخلق ونجواهم، قال لله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾.

وقلت: إننا نرجو أن يكتب الله لكم أجر الصابرين على دينهم الذين ورد فيهم قول الرسول ﷺ: (سيأتي زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر، له أجر خمسين)، قال الصحابة: يا رسول الله أجر خمسين منا أم منهم ؟ قال: (بل منكم).

وقلت لهم: إن الله سبحانه وتعالى هو خالقنا جميعاً، ويعلم مكاننا بل يعلم مكنونات صدورنا كما قال تعالى: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ فيجب علينا أن نراقب الله تعالى، وأن نعمل بما أمر به من إقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

ولا يظن ظان أن الله سبحانه وتعالى غافل عنه، فيؤجل الصلاة إلى وقت من الأوقات غير وقتها، أو إلى مرحلة من عمره لا يدري يبلغها أم لا.

وقلت لهم : إنكم أيها المسلمون الذين جئتم إلى هذا المسجد لأداء الصلاة على خير كثير إن شاء الله .

إذا كان لا يدفعكم إلى المجيء إلى المسجد إلا الإيمان، ذلك بأن الإيمان يجلب السعادة إلى الإنسان، ويهون عليه مصائب الحياة ومصاعبها، ولذلك هو نعمة عظيمة غالية، بل لا تشترى بالمال، وإنما ثمنها العمل الصالح الذي هو طبق ما أمر الله به ورسوله.

وقلت: إنكم أيها التتار كانت لكم ممالك عظيمة، وحكمت هذه البلاد أماداً طويلة، ولذلك يجب أن تتميزوا عن غيركم من المواطنين بالعمل لصالح للإسلام.

ويجب عليكم - أيضاً - بل إنه من أعظم الواجبات أن تربوا أولادكم تربية إسلامية، تعوضون بها ما فات آباءكم الذين عاشوا تحت كابوس الشيوعية الملحد.

وأنتم تعيشون في بلد أكثريته من غير المسلمين، فيجب عليكم أن تتمسكوا بما يأمركم به الإسلام من الأخلاق الفاضلة في المعاملة كالصدق في البيع والشراء، والأخذ والعطاء، والبعد عن الغش، لأن

الرسول ﷺ يقول: (من غشنا فليس منا)، وفي رواية: (من غش فليس منا) وعلى هذه الرواية لا يجوز أن يغش المسلم حتى الكافر، بل الصدق في المعاملة مطلوب من المسلم، حتى يعرف به.

وقد عقب على كلمتي إمام المسجد الأخ (إبراهيم كريم) فشكرنا على ما وصفه بتجشم متاعب السفر والقدوم إلى هذه المدينة للقاء إخوانكم المسلمين فيها.

صورة تذكارية مع المسلمين في مسجد توبولسك في سيبيريا

والأخ إبراهيم هو إمام المسجد، وهو في الوقت نفسه رئيس الجمعية التي تقوم عليه.

المسلمون في توبولسك:

قال لنا رئيس جمعية المسجد وإمامه الأخ إبراهيم كريم: إن سكان المدينة يبلغ عددهم (١٨٠) ألفاً، منهم ٣٠ ألفاً من المسلمين التتار، وإنه

يوجد فيها مسلمون من غير التتار جاؤوا إليها من أماكن أخرى مثل أذربيجان والشيشان وداغستان.

فقلت لهم: كيف لا يكون في هذه المدينة إلا مسجد واحد، مع أنه يوجد هذا العدد الكبير من المسلمين فيها؟

فقالوا: هذا كله من تأثير الشيوعية، لقد علمهم الشيوعيون على محاربة الدين، ولكن التتار صمدوا ولم يغيروا دينهم، ومازالوا يقولون إنهم مسلمون، وأن كان الجهل بالدين سائداً بينهم لما ذكر، ولشيء آخر وهو أن التتار في هذه البلاد عايشوا الروس، وتطبع بعضهم بطباعهم التي هي بعيدة عن الإسلام، أو منافية له، نتيجة لانقطاعهم الطويل عن الاتصال بالعالم الإسلامي، وحتى عن الحج إلى بيت الله الحرام.

هذا وقد أعلنا لهم تبرعاً عاجلاً مناسباً من رابطة العالم الإسلامي يصرف فيما يحتاجه المسجد من مصروفات متكررة وغيرها، إلا أنهم قالوا: إننا سوف نصرفه على نقل الحمامات الموجودة في داخل المسجد، ونبني غيرها بجانب المبنى حتى نجعل مكانها توسعة للمسجد، لأنه يضيق بالمصلين أيام الجُمع والأعياد، فقلت لهم: كم يكفي لهذا العمل ؟ فقالوا: ثلاثة آلاف دولار، فأعطيناهم المبلغ بعد أن شاهدنا المكان الذي يقع في طابق سفلي للمسجد.

وعندما فرغ الحديث معهم الذي هو حديث مع الرجال، وكانت النساء تراقبن ولا تتكلمن، قامت منهن امرأة برزة في منتصف العمر اسمها (يوليه خابرفين) فذكرت أنها صامت رمضان في العام الفائت، وأنها تشعر بواجبها الإسلامي، فسرني ذلك، وسألتها عن عدد أولادها، فأجابت أنهم ثلاثة، ولها ثلاثة أحفاد أيضاً، فقلت لها: أيصلي أولادك؟ قالت: لا، أنا لا

أصلي، فكيف بهم ؟ فاستفظعت ذلك وقلت لها: كيف تقولين هذا؟ فقالت: أنا لا أعرف كيف أصلي، ولم أجد من يعلمني، وهنا ناديت إمام المسجد، وأخبرته بما قالت قائلاً: إنه يجب عليها أن تصلي، وإلا لا تعتبر مسلمة، أما عدم معرفتها بكيفية الصلاة فإن ذلك لا يعفيها من غضب الله تعالى، لأنها تستطيع أن تسأل إمام المسجد، أو إحدى النساء المصليات فتتعلم ما يكفي للصلاة، ولكن إمام المسجد لم يفاجأ مثلما فوجئت بوجود مسلمة تعلن أنها لا تصلي، لكونها لا تعرف كيفية الصلاة، وقلت له: أرجو أن تعلمها وأمثالها الصلاة: فقال: نعم.

قلت لها: يا (يوليه) ما معنى اسمك؟ قالت: لا أعرف، قلت لها: من سماك به ؟ قالت: أمي اسمها (نقية)، وجدتي اسمها (آبسة)، وذكرت أن جدتها (آبسة) التي قال بعض الحاضرين: إنه ربما كان أصله (حابسة) تقرأ الحروف العربية.

وواحدة أخرى اسمها (مليوشا أنور)، لها ثلاثة أولاد، ذكرت أنها لا تصلي، ولا يصلون هم أيضاً، فأخبرتها بعظم وزر من يترك الصلاة، ومن يرضى أن أولاده يتركون الصلاة.

فقالت: ميلوشا: كيف نصلي؟ ونحن لا نعرف قراءة الصلاة؟ فقلت: بالتعلم ممن يصلين من نسائكن، أو من إمام المسجد، أو من ينيبه.

وسألت إحدى الكبيرات عما إذا كانت تصلي؟ فقالت: نعم؟ وكانت إحدى الشابات واسمها (فيروزة محمد) تسمع الكلام، فقلت لها: أتصلين يا فيروزة؟ فقالت بثقة وصدق: نعم ، فقلت للحاضرين، ومنهم إمام المسجد: كيف تصلي الصغيرة ولا تصلي الكبيرات؟ فقالوا: هذا هو الأمر الطبيعي في هذه البلاد، فالكبيرات نشأن تحت الحكم الشيوعي الملحد، ولم يتعلمن بعد زوال ذلك الحكم، أما الصغيرة (فيروزة) وأخرى أصغر

منها، فإنهن تعلمن في المسجد، ويصلين، مع العلم بأنني أقدر أن عمر فيروزة هو التاسعة عشرة، والأخريات الكبار في الخامسة والخمسين أو نحو ذلك.

هذا وقد عقب المفتي على كلمتي التي كان يترجمها إلى التتارية إمام لمسجد غير هذا المسجد كان حضر لمقابلتنا، وهو يعرف قدراً من العربية لأنه يتعلم في مصر، وقد حضر إلى بلاده (سيبيريا) لقضاء الإجازة الصيفية، فتكلم معهن بالتتارية وقال لنا بعد ذلك: إنني أخبرتهن بأننا مستعدون لتعليم كل واحدة كيف تصلي في هذا المسجد، وإننا عازمون، وقال بدأنا بحلقة للدروس الإرشادية الدينية للكبار في المسجد.

الوداع بدموع السماء:

كان الجو صاحياً، بل شامساً عندما دخلنا المسجد، وفي أثناء جلوسنا الطويل فيه غامت السماء، ولمع البرق، وقصف الرعد، ثم أمطرت ولم نشعر بذلك، لأننا كنا داخل المسجد، ومستغرقون في النقاش، وعندما غادرنا المسجد في الخامسة إلا ربعاً كان الواحد منا لا يستطيع أن يصل إلى السيارة إلا تحت مظلة من شدة المطر، فقالت (يوليه): استقبلناكم بالشمس، ونودعكم بدموع السماء، وهي المطر !.

وهذا تعبير أدبي رائع.

والحقيقة أن هؤلاء الإخوة فرحوا بزيارتنا فرحاً عظيماً، إلا أن الذي نقص منها كونها لم تجد متسعاً من الوقت لزيارة أكثر الإخوة والاطلاع اطلاعاً أوسع على بلادهم، ومع ذلك تمكنا بحمد الله تعالى من إنجاز الكثير مما أردنا إنجازه، ومن ذلك توسعة المسجد التي لم يجد المسلمون سبيلاً للحصول على نفقتها التي لا تكاد تتجاوز أحد عشر ألف ريال.

مائدة أنقوشية:

غادرنا منطقة المسجد على سيارتين والمطر يهطل، وقد برد الجو قليلاً، إلا أنه لا يزال حاراً داخل المنازل، فسرنا في شوارع (توبولسك) التي لا تكاد تختلف عن شوارع المدن الروسية الأخرى، لوحدة مذهب الحكومة التي كانت تحكم الجميع، ومنازلها تتألف من ثلاثة أقسام، أولها المنازل التاريخية القديمة التي تكون مبنية من الخشب ومنفردة عن المنازل الأخرى، وتكون لها أفنية مكشوفة ضيقة، كثيراً ما تحاط تلك الأفنية بسياج من الأعواد المهذبة الواقفة التي لا يعترض منها شيء، والثاني الأبنية الضخمة العالية التي سبق ذكرها، وأسميتها في كتبي بالعمائر الشيوعية، والثالث: أبنية من الآجر أسافلها من الحجارة، وقد تكون من لبن الإسمنت، لا يتضح ذلك من النظر إليها لكونها مطلية بمادة تخفي داخل الحائط، وتكون من طابقين أو ثلاثة، وهذه الأبنية التي كانت موجودة في المدن الروسية قبل الشيوعية، ولا تختلف (توبولسك) عن بقية المدن السيبيرية في كونها مشجرة كثيرة الحدائق، إلا أن حدائقها ليست فيها العناية الموجودة في الحدائق عندنا، فالتزهير فيها قليل، وتنسيق الأعشاب الوحشية أقل.

وصلنا إلى هدفنا وهو مسكن الأخ (محمد علي فسباروف) في شقة في الدور الرابع من (عمارة) شيوعية مدخلها متهدم مهمل، ودرجها ليس فيه مصباح، وتفوح رائحة عفنة من الطابق الأرضي فيها.

فصعدنا الدرج على أقدامنا، لأنه ليس فيها مصعد إلى الدور الرابع، فلما دخلنا بيته زايلنا أثر ما رأيناه في مدخل (العمارة)، وهذه هي حالة البيوت الشيوعية، وهي (العمائر) المبنية في العهد الشيوعي أن تكون الأشياء المشتركة في العمارة مهملة، لأن إصلاحها حسب القانون والعرف

الشيوعيين هو من عمل الدولة، ولكن الدولة الشيوعية ولت، وأمور البلاد الاقتصادية ساءت، بل وصلت إلى الحضيض، لذلك صار كل شخص مسؤولاً عما يخصه، وضاعت المصلحة العامة.

استقبلنا الأخ (محمد على فسباروف) ومعه رجل آخر شاب، أظنه أخاه، وهو يرحب ويكثر من ذلك، وفي داخل البيت عند الباب وجدنا أحذية سبتية (شباشب) من الجلد، فخلعنا أحذيتنا ولبسناها داخل المنزل كما فعل هو مع أن المنزل غير واسع.

كان الهواء داخل البيت حاراً، ففتحوا النوافذ كلها، فأحسسنا بشيء من الهواء اللطيف في هذه المنطقة السيبيرية.

كان معنا أخ من أهل (توبولسك) يدرس في القاهرة، وجاء إلى هذه المدينة وهي بلدته ليقضي الإجازة الصيفية، وهو يعرف العربية، فكان يترجم لنا ما يدور من كلام لأنه ليس معنا من يحسن لغة الأنقوش التي هي مثل لغة الشيشان، لا يفهمها غير أهلها من سكنة القوقاز.

وحالما جلسنا على مائدة كانت معدة من قبل وعليها مقدمات المائدة من السلطة المألوفة التي هي الطماطم والخيار، جاؤوا بالغداء الأنقوشي، فكان أوله حساء، أي (شربة) من الخضرات الغليظة التي طبخوها وأكثروها في السلطانية التي فيها (الشربة) حتى ثخنت، ولذلك لم يحضروا ملاعق لتناولها، بل أحضروا شوكاً، ولك أن تعجب من (شربة) يتناولها الآكل بالشوكة، ولكن عجبك سوف يزايلك مثلما زال عجبنا بعد ذلك.

وقد جاؤوا معها بصحون مليئة بما رأيناه عجيناً أو ما يشبه العجين، ويظهر هو كذلك، وهو على هيئة قطع في حجم البيضة إلا أنها على هيئة أقراص مضغوطة، ويسمونه (ودج هالديم)، فكان الآكل منهم، ونحن

فعلنا فعلهم، يلتقط بالشوكة واحدة من هذه فيغمسها في هذه (الشربة) من الخضار، وهي دسمة فتتشرب مما فيها، ويأكلها حتى إذا قل سائل الشربة وبقي الغليظ منها أكلوه بالشوك حسواً كما يفعلون بالملاعق.

وقد جاؤوا أثناء ذلك بحساء من مرق الذبيحة لم يخالطه مخالط، فلا خضار ولا غيره، وهو دسم أيضاً لأنه مرق ذبيحة من الغنم سمينة، وجاؤوا معه بأداة صغيرة فيها الثوم المجروش الذي يغرف الآكل منه بشوكته وبقطعة العجين هذه، وهم يقولون: إنه ليس عجيناً، ولكنه من حبوب خاصة، ويأكل من هذا الثوم، وعرفت الحكمة من إحضارهم الثوم المجروش، وهو مكافحة الدسم الكثير في اللحم والطعام، وهذا طبياً يكاد يصبح أمراً معروفاً، أما في طب التجربة فإنه صار مألوفاً لهم هناك في هذه البلاد الباردة التي يحتاج أهلها إلى الإكثار من الدسم في الطعام، لأنه يساعد على تكوين طبقة دهنية فوق الجسم تكافح البرد.

وجعلوا أثناء ذلك يشربون من حساء اللحم الخالي من اللحم، يشربونه من السلطانيات مباشرة وبدون ملعقة، وفعلنا مثلهم، وبخاصة أن الثوم موجود لمكافحة ارتفاع الشحوم الدهنية داخل العروق المسماة بالكلسترول.

ثم أحضروا خبزاً معتاداً صار الجميع يأكلون منه.

أما الشراب فإنه الماء المعدني المثقل بالغاز، والأشربة الغازية الأخرى كالكوكا كولا وما شابهها.

ثم جاء الطعام الرئيسي وهو لحم خروف كامل مقطع إلى قطع كبيرة في صحون كبيرة، فكانوا يأكلون منه أكل الجائع ثقة منهم بهذا الثوم الذي يغمسون قطعة اللحم فيه أحياناً ويزدردونها.

وقد جاريناهم في المضغ والبلع، وما ذكرت أنني أكلت مثل هذا

المقدار من اللحم الدسم، وشربت من المرق والحساء المفعم بالدسم مثل هذا منذ سنوات عديدة، إلا ما كان من أمر مائدة قازاقية ذكرت قصتها في كتاب: « في غرب سيبيريا » الذي سبق هذا الكتاب.

ولحمهم لذيذ الطعم، يشبه طعم لحم الخراف النجدية التي تعيش على الأعشاب، والأمر كذلك هنا، لأنهم يعلفونها من الأعشاب البرية التي إذا دفنها الثلج في الشتاء أخرجوا للماشية مما قطعوه منها في الصيف، مؤونة لها في الشتاء.

وسألتهم عن الخضرات المألوفة في بلادنا، مثل الفاصولياء والباميا فذكروا أنهم لا يعرفونها، ولا تنبت في هذه البلاد، وإنما يوجد الباذنجان الأسود في الصيف.

بعد أن أكل القوم، وأكلنا معهم أكل الجمال، تركنا المائدة كما تترك الجمال العشب إذا شبعت منه في الربيع، وكأنما امتثلوا وامتثلنا معهم بما قاله المثل العامي عندنا: (كل أكل الجمال وقم مع أول الرجال).

أي قم عن المائدة مع أول من يقوم عنها من الرجال وأنت شبعان، ولا تتأخر في ذلك لئلا يتهمك الناس بالجشع وكثرة الأكل.

أخذوا يبعدون ما على المائدة من صحون وأوانٍ وشوك وسلطانيات حتى فرغت منها كلها، ثم جاؤوا بأخرى غيرها معها مثقلة بالفواكه، منها بطيخ أخضر (حبحب)، وأصفر (جرو)، وتفاح وكمثرى، وصحون من الأرز بالزبيب، ويعتبرونه في بلاد ما وراء النهر والبلدان الشمالية مكملاً للمائدة، لا يعتبرونها كاملة بدونه، ولذلك يكون آخرها تقديماً.

ومع ذلك حلوى مقرطسة، وشيكولاته مقرطسة أيضاً.

فأخذ القوم يأكلون، وبخاصة من البطيخ بنوعيه لأنه جيد، وهو من

بخارى على بعد يقرب من ثلاثة آلاف كيلو متر من هذه البلاد أو تزيد، وذكروا أن كل هذه الفواكه مستوردة، لأن هذه البلاد الخضراء لا تنتج فاكهة بسبب قسوة طقسها في الشتاء، إلى درجة لا تتحمله الأشجار المثمرة.

جولة في مدينة توبولسك:

اسمها على اسم نهر (توبول)، مثلما أن (أومسك) كبرى مدن سيبيريا اسمها على اسم نهر (أوم) الذي يجري فيها الآن، وكانت أسست على ضفافه، ويختلط بنهر (إيرتيش) في قلبها، ويبلغ عدد سكان توبولسك (١٨٠) ألف نسمة كما سبق.

خرجنا من بيت الأخ الأنقوشي المقيم في توبولسك بعد السادسة عصراً، ومازالت في النهار بقية تزيد قليلاً على أربع ساعات.

وسلكنا شارعاً من شوارعها الواسعة، لا سيما الرئيسي الذي يدخل معه إلى المدينة، فهو بالغ السعة، وبين طريقي السيارات صف من الأشجار بعده رصيف عريض للمشاة والدراجات.

وتركب الخضرة حواشي الشوارع والأماكن الخالية من البناء، وهي أعشاب وحشية أي غير مزروعة، ثم رأينا كنيسة روسية ثالثة، فأخبرونا أن عدد الكنائس في هذه المدينة (١١)، غير أنها لا تعمل منها إلا اثنتان، هكذا قالوا، والصحيح الذي عرفناه أن انصراف الروس عن المسيحية بتأثير التربية الشيوعية أعظم وأكبر من انصراف المسلمين عن الإسلام لذلك السبب، حتى إن بعض الكنائس تقام صغيرة مزوقة بمثابة الرمز إلى الديانة الأرثوذكسية في البلاد، وليس من أجل أن تتسع لعدد كبير من المتعبدين.

بدايات توبولسك:

وصلنا ميداناً واسعاً تنبع أهميته من كونه كذلك، ومن شيء أهم من ذلك، وهو أنهم كتبوا عليه بداية بناء المدينة كتابة واضحة، بل إنها كتبت لتكون كذلك.

وأنه في عام (١٥٨٧)، واسم الميدان (رامزدوا).

وقد كتبوا تاريخ ابتداء العمارة في المدينة على هذا الميدان، بعد أن احتفلوا بمرور أربعمائة سنة على بدايات تأسيس المدينة، وذلك في عام ١٩٨٧م.

وهذه الكتابة توحي إلينا نحن الذين نملك مدناً تاريخية، بل موغلة في التاريخ مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف ومدائن صالح وتبوك.

تاريخ ابتداء مدينة توبولسك التي أنشأها الروس على أنقاض المدينة الإسلامية القديمة والمؤلف مع إمام المسجد الأخ إبراهيم

ومدناً أحدث عهداً، ولكن لا أحد يعرف تاريخ تأسيسها، بل لا

يكاد بعض الناس يعرف منه شيئاً، مثل (جدة) و(أبها) و(الدمام) و(بريدة) و(عنيزة).

ولو كتبنا تاريخ كل مدينة ملخصاً في أهم ميدان فيها على أهم مركز حضاري فيها، لكان في ذلك دعاية لها، وفائدة للمواطنين والأجانب الذين يحرصون على معرفته.

التاريخ المحزن والمحرف:

قال الإخوة المسلمون: لقد كذب الروس فيما ذكروه، مما يوحي بأنه لم تكن توجد في المنطقة مدينة، ولم يكن فيها مصر من الأمصار قبل وصولهم إليها، وسلبها من أهلها المسلمين، وذلك بأنه كانت تقوم على بعد نحو خمسة كيلو مترات مدينة رئيسية من مدن سيبيريا اسمها (أسكير)، وكان يقطنها أحد خانات المسلمين الذين يسمون بالتتار، وكانت جزءاً من (خانية تومين) السيبيرية الواسعة .

واسم إسكير هو اختصار اسم قديم للمدينة هو (أسكي سيبيريا) بمعنى سيبيريا القديمة.

فإسكي: قديم باللغة التركية القديمة، وربما كان كذلك في اللغة التركية العثمانية الحديثة اختصروها إلى (أسكير)، وكانت مدينة إسلامية بحكامها وشعبها، وقد عمها الإسلام قبل وصول الروس إليها بأكثر من مائتي سنة.

وعندما استولى الروس على هذه المنطقة، وأسقطوا الحكم الإسلامي، وقتلوا من قتلوا من المسلمين الذين اختلفت أقوالهم في عددهم ما بين مكثر يصل به إلى مائتي ألف قتيل، وإلى مقل في ذلك هدموا مدينة (أسكير) الإسلامية التي كانت معظم بيوتها من الخشب، فأحرقوها وأنشأووا مدينة (توبولسك) هذه في مكانها، ولكن على بعد ليس كثيراً،

بل هو في حدود خمسة كيلو مترات.

واعتمدوا في تاريخ المدينة وهي مدينتهم أنه لم يمض عليه إلا أربعمائة سنة، وهذا صحيح، ولكن من غير الصحيح أن يزعم أحد أن هذا هو تاريخ أول مدينة في المنطقة.

وقد أسرع الإخوة الذين معنا يقولون لنا شيئاً عرفناه، أو عرفنا منه الكثير من قبل، وهو أن من أسباب سقوط الحكم الإسلامي، واستيلاء الروس على بلاد المسلمين في سيبيريا اختلاف المسلمين، ولجوء بعض حكامهم إلى الروس ليجيروهم من إخوانهم المسلمين، مما جعل الروس يستغلون ذلك، ويستعملونهم بالفعل ضد إخوانهم، ومنهم من حارب إلى جانب الروس.

وإلا فإن القياس يقول: إن هذه البلاد النائية البعيدة عن بلاد الروس الأصلية في مدينتي موسكو وبطرسبرج التي كانت تسمى في العهد الشيوعي مدينة (لينين قراد) قادرة على قطع خط الإمدادات عن الروس، إذا كانوا - أي الروس - قد تغلبوا على المسلمين في أول الأمر بسبب ما قد يكونون يملكونه من أسلحة حديثة لا يقدر عليها المسلمون، وهي بلاد قاسية البرد، يكفي أن يسلب الغزاة من الأعداء ما معهم من أغذية وأكسية، وإحراق ما يبنونه من بيوت خشبية لكي يموتوا جوعاً وبرداً، مما استعمله الروس أنفسهم بالفرنسيين عندما دخلوا بقيادة نابوليون إلى مدينة موسكو، وبالألمان بقيادة هتلر عندما وصلوا إلى مشارف المدينة، ولكنهم لم يستطيعوا دخولها، ولا يزال المكان الذين وصلوا إليه مميزاً حتى الآن بموانع سير الدبابات، يراه كل من يصل إلى موسكو عن طريق مطارها الأساسي الذي هو (شيرماتوف).

وقد نقل عن القيصر الروسي قوله: إن لدي قائدين لا يهزمان، هما:

شهر يناير وفبراير، فلم لم يكن ذلك ومثله للمسلمين؟

كرملين توبولسك:

ربما لا يعرف كثير من القراء الكرام أن قصر الكرملين الشهير في موسكو الواقع على ميدان الكرملين أهم ميادين المدينة معناه قلعة كرملين، وأنه قديم جداً، وأنه كان إبان مجد المسلمين في تلك المنطقة مقراً للكيناز الروسي الذي هو الحاكم الكبير، ولكن لا يكون حكمه صحيحاً ولا مطاعاً من قبل الروس أنفسهم حتى يصدر به مرسوم (فرمان) من سلطان المسلمين في قازان التي هي الآن عاصمة جمهورية (تتارستان) في داخل روسيا.

فكان الروس إذا اختاروا حاكماً كبيراً لهم (كنيازاً) أرسلوا بذلك إلى السلطان، فأمر بإرسال مرسوم يصدر منه بهذا التعيين، وتحمله بعثة ذات مراسم خاصة إلى (الكرملين)، ويتلى على زعماء الروس وكبارهم، وفيهم رؤساء الكنائس، فيصبح تعيينه صحيحاً، ويخضع له القوم.

وقد بنى الروس في كل عواصم المسلمين التي استولوا عليها أو أكثرها قلعة ضخمة محصنة أسموها الكرملين أضافوها إلى البلدة التي توجد فيها، مثل (كرملين قازان) قد ذكرتها في كتاب « الرحلة الروسية » وفي أكثر من كتاب بعد ذلك من الكتب المخطوطة والمطبوعة.

كما أنشؤوا في مدينة (إستراخان) التي كانت عاصمة مهمة من عواصم الإسلام في المنطقة، زارها ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، وذكر من ازدهارها وسعتها ما يعجب له المرء، واسمها في وقته (حاج طرخان). وقد صارت عاصمة خانية إسلامية بعد ذلك، إلى أن حل النزاع والشقاق بين حكامها وحكام مناطق إسلامية أخرى، فتدخل الروس بالسياسة والإفساد بينهم، ثم أشهروها حرباً شعواء عليهم حتى أسقطوها

واستولوا على المدينة وما يتبعها من المناطق الواقعة إلى الشمال والشرق من بحر الخزر الذي صار يسمى الآن (بحر قزوين).

وبنوا فيها عندما دخلوها قلعة ضخمة أسموها (كرملين إستراخان)، زرتها وتجولت فيها وذكرت ذلك في كتاب: «إقليما سمارا وأستراخان» من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا.

وهنا بنوا قلعة ضخمة محصنة في أعلى مكان في المنطقة، بل هي تشرف على هذه المدينة مثلما تشرف (الكرمليات) الأخرى على المدن التي توجد فيها، أكثر مما يشرف كرملين موسكو على موسكو، إن كان يشرف عليها.

وقد بنوا بجانب قلعتهم (كرملين توبولسك) هذه، داخلاً في سورها كنيسة روسية شامخة البناء، ذات برج عالٍ قد طلوا أعلاه بلون ذهبي.

جانب من مدينة توبولسك يظهر فيه المسجد وبعدها نهر توبول

ومع أن القلعة حصينة فإنهم قد حفروا الطريق الذي يوصل إليها من المدينة التي هي منخفضة عن القلعة، بل إنها بالنسبة إليها كأنما هي في

بئر، فجعلوه عميقاً بحيث إن الأعداء الذين يسلكونه يريدون الوصول إلى القلعة منه يمكن أن يلقى الحراس الذين يحرسون مدخلها هذا الحجارة عليهم، أو يرمونهم بالسهام، طبقاً لما كان معروفاً من الدفاع عن القلاع في تلك العصور.

ونعود إلى الحديث عن برج الكنيسة العالي فنقول: إن أسفله ضخم جداً، وقال لنا الإخوة المسلمون: إن الروس بعد أن احتلوا مدينة (سكير) ثم أحرقوها، نقلوا جميع ما فيها من أشياء مهمة لا ينتفعون بها، حتى الحجارة المنقوشة أو المكتوبة عليها، وحتى بعض الكتب والمخطوطات، وبنوا فوق ذلك هذا البرج.

هذا ما قالوه، وظني أن ذلك يصح عقلاً إذا قلنا إنهم لم يدفنوا الأشياء النافعة لهم، وأما باقي الأشياء، فإن التعصب الديني السائد عند المسيحيين في ذلك الوقت لا يستبعد معه مثل هذا، لا سيما أن الروس كانوا يعتبرون حربهم مع المسلمين في سيبيريا حرباً مقدسة بين الإسلام الذين يعادونه والمسيحية الأرثوذكسية التي يعتنقونها.

ولا يستبعد هذا من اطلع على ما فعله الروس بعد أن احتلوا مدينة قازان بقيادة القيصر الرابع المعروف باسم المدهش أو الرهيب، ولقبه في الروسية الذي كان يلقبه به يدل على ذلك، فهو (قروزني)، وذلك معناه فيها الرهيب أو المدهش، استعمله الروس بمعنى المدهش، واستعمله الأجانب بمعنى الرهيب.

وهو - بلا شك - مدهش للروس بأفعاله وانتصاراته المتعددة على المسلمين، وإن كان رهيباً بالنسبة للمسلمين.

وقد ذكرت شيئا من ذلك في كتابي الذي طبعته رابطة العالم الإسلامي في مطبعتها ونشرته في عام ١٤٢٠هـ بعنوان « بلاد التتار

والبلغار » ونقلت فيه من النصوص القديمة إلى جانب المعلومات الميدانية والمشاهدات ما لا تجده مجموعاً في كتاب عربي آخر.

وقفنا بجانب القلعة والحزن والأسى يلف نفوسنا وعيوننا على هذه المشاهد التي ذكرتنا بالمصائب التاريخية التي حلت بالمسلمين.

ثم نزلنا قليلاً على شفير التلة التي تقع عليها القلعة، وتطل على مدينة (توبولسك) إطلالة مباشرة، فرأينا المدينة في وضع أنيق إذْ هي ممتدة إلى مسافات كبيرة بالنسبة إلى عدد سكانها، وتكثر الحدائق والمساحات الخضر فيما بين ضواحيها، ونهر (أيرتيش) يشقها في منظر أنيق.

وترتفع أبراج الكنائس العديدة فيها، وإن كان بعضها لا يؤمه إلا عدد قليل من المتعبدين، وبعضها لا يؤمها منهم أحد، وتطل المنارة الوحيدة للمسجد الوحيد في هذه المدينة التي تقع العاصمة الإسلامية القديمة (أسكير) أو(أسكي سيبيريا) على مرمى حجر منها.

ولكن منارة المسجد هي شامخة أيضاً، ظاهرة للعيان لمن ينظر إلى المدينة نظرة عامة من هذا المكان المرتفع.

كنا نغالب العواطف الجياشة التي انتابتنا لهذه المشاهد التي يحزن لها كل مسلم يهتم بأمر المسلمين، ولذلك لم نطل المكث في الإطلال على المدينة التي تبدو منه جميلة مونقة المنظر، فعدنا إلى ما أثار أشجاننا، وهو التجول في هذه القلعة الحربية التي اسمها (كرملين توبولسك)، فوصلنا إلى متحف فيها قد وضعوا في مقدمته مدافع قوية قديمة، وقد كتب على أحدها أنه صنع عام ١٨١٣م في الوقت الذي لم يكن أكثر المسلمين سمعوا بأن المدافع موجودة، فضلاً عن أن يعرفوها، ثم فضلاً - أيضاً - عن أن يفكروا في مجرد امتلاكها وليس صنعها.

ولا يزال الحال على ما هو عليه في صناعة السلاح المتطور لدى

الأعداء دون المسلمين الذي انقسموا فرقاً، فرقة رضيت بالذل والهوان واعتادت عليه على حد قول أبي الطيب المتنبي.

مَنْ يَهُنْ يَسْهلِ الهوانُ عليه مَا لِجرْحٍ بميّت إيلامُ

وقسم صارت تشتري من فضلات السلاح الموجود عند غير المسلمين تقايضه بأموال المسلمين التي يحتاجونها للأمور الأخرى، وما من عاقل منصف يلومهم على ذلك، غير أن السلاح الذي يشترونه لا يكادون يعرفون كيفية استعماله حتى يعود قديماً يصنع الأعداء لمقاومته أو التفوق عليه أسلحة أخرى.

وقسم لا هذا ولا ذاك، فهو يعرف ضرورة السلاح لبقاء الأمة المسلمة قوية مهابة، ولكنه لا يملك من المال ما يمكنه من ذلك، ولا من الخبرة ما يجعل تصنيع السلاح أمراً محتماً.

هذا وتحيط بالقلعة أسوار قوية، قد أكثروا فيها من المقاصير والأبراج المدورة الشكل، مع أنهم لا يحتاجون إليها، ولكن كانوا بنوها في القديم.

أين أهل المنطقة من المسلمين؟

قال الإخوة المسلمون في توبولسك: إن عدد المسلمين في هذه المدينة هو (٣٠) ألفاً من سكانها البالغ عددهم (١٨٠) ألفاً، وهذا عدد لا بأس به إذا عمل المسلم لدينه أو أنتج ما يحتاجه، ولكن الذي يتبادر إلى ذهن المهتم بأمر المسلمين مثلنا يتساءل: أين السكان المسلمون الذين كانوا هم أهل المنطقة دون غيرهم من الروس ومن لف لفهم من السلافيين الآخرين كالروس البيض والأوكرانيين؟

أجاب الإخوة على ذلك بأن القتل فيهم كان ذريعاً بعد انهيار دولتهم

الإسلامية، فبعضهم قتلوا قتلاً حتى قال أحد المسلمين: إن نصف السكان قد قتلوا، حتى إن الأخبار التي تناقلها الناس ذكرت أن الدماء كانت تجري في أحد المواضع كما يجري النهير، وهو النهر الصغير.

وذكر آخرون أن الروس عملوا على تنصير المسلمين بعد أن غلبوهم بالقوة، واستطاعوا أن ينصروا أعداداً منهم ذابت في المجتمع الروسي، ثم عملوا على (ترويس) أناس آخرين، بمعنى أنهم جعلوهم يعملون ويعيشون كما يعمل الروس ويعيشون.

قالوا: ولا يزال هذا الأمر سارياً حتى الآن، وهو الزواج المختلط الذي يفضي بعد فترة إلى الاندماج في الروس أو (المتروسين) بعد زواج الجيل الثاني أو الثالث المختلط.

قالوا: ثم جاءت هجرات من الروس ومن التحقوا بهم، فسكنت المنطقة، فصارت لهم الأكثرية السكانية، وصار المسلمون أقلية فيها.

لا سيما أن الحكم والنفوذ، بل الإدارة هي بيد الروس، ولولا تصميم الشعب التتاري على إبقاء هويته الإسلامية، ومقاومته للذوبان، وصبره على دينه الإسلامي الذي صار لا يعرف منه شيئاً، أو هذه حال الأكثرية، لكان قضى عليه قضاء مبرماً.

وكنت في هذه المناسبة وأمثالها أشير على الإخوة المسلمين التتار بأن يبيحوا الزواج بأكثر من واحدة، لأن هذا هو الذي جاء به الدين الإسلامي الحنيف، كما كنت في كل مناسبة أتكلم معهم عن تسهيل الزواج المبكر بين الشبان والشابات من المسلمين، بهدف تكثير نسل المسلمين ومقاومة الذوبان الذي تعرضوا له بأساليب حديثة منها ما ذكرته.

فكان بعضهم يأخذ هذا مأخذ الجد ويقول: المهم هو التطبيق، وبعضهم ممن تأثروا بالثقافة الشيوعية، وعرفوا أن الشيوعيون والملحدين

من أعداء الإسلام كانوا يشنعون على المسلمين في مسألة تعدد الزوجات، مع أنهم تكون لهم خليلات وشبههن أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة، فترى أولئك يبتسمون ويسكتون غير مقتنعين .

وقد حرصت في الأماكن المناسبة أن أذكر ذلك، وأن أعرف أنه لا يمكن إنفاذه بسرعة، بل يحتاج لوقت طويل وإعداد كافٍ، ولكن المهم في الأمر هو أن تتخمر الفكرة في النفوس، وإن تأخر تنفيذها تأخراً طبيعياً.

مغادرة توبولسك:

غادرنا توبولسك في السابعة والنصف عصراً، وقد بقيت على غروب الشمس نحو ثلاث ساعات، فسلكنا شارعاً واسعاً جيداً، عليه أبنية مهمة منها عدة فنادق، فمررنا على البعد بمصنع كبير قيل لي: إنه متعلق بالنفط.

وخرجنا من مدخل المدينة الذي فيه مركز الشرطة، ولم يوقفونا ولا اعترضوا سيارتنا.

وكانت الشمس صاحية، فقد أنقشع الغيم بعد المطر الذي جاد المدينة بغيث هاطل قبل قليل، وما زالت الشمس حتى هذا الوقت حارة الوقع على الجسم.

قرية سومكينو:

هذه قرية لا تبعد كثيراً عن (توبولسك) ذهبنا إليها من أجل زيارة مسجد فيها، والاجتماع بالإخوة المسلمين المسؤولين في الجمعية الإسلامية المشرفة على المسجد.

دخلنا قرية (سومكينو) مع شارعها العام، فوجدنا أرض الشارع

سيئة جداً، فقد كان فيه إسفلت قديم ولكن ذهب أكثره، وبقيت كسر منه تعرقل السير، وقد أظهر المطر الذي هطل قبل قليل عيوبه.

ومع ذلك كان في مدخل القرية صف من الأبنية الكبيرة العالية (العمائر) التي كانت الحكومة الشيوعية قد بنتها، ما لبث هذا الصف أن صارت بعده منازل خشبية تقليدية متفرقة ذات سقوف مسنمة.

وتقع القرية على نهر (ايرتيش)، ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نسمة، (٤٠٪) منهم مسلمون من التتار.

رأينا منارة المسجد عند ما أقبلنا عليه شامخة، وهو نفسه أعلى من أي بناء في هذه المنطقة من القرية، وأجملها منظراً.

وجدنا في الاستقبال إمام المسجد الأخ (فتح الله بن سعيد الله)، وهو موظف متقاعد يبلغ الآن السابعة والستين من العمر، ويتقاضى راتباً تقاعدياً وهو (٤٥٠) روبلاً في الشهر، وذلك يعادل واحداً وعشرين دولاراً أمريكياً، إلا أنه ذكر أنه يعمل الآن في تربية الحيوان، ولديه مزرعة فيها بقرة واحدة.

دخلنا المسجد فوجدنا فيه رائحة جميلة كرائحة الندّ التي تطيب بها المنازل، وقارنا بينه وبين الرائحة التي استقبلتنا بها (العمارة) الشيوعية التي تغدينا فيها في الطابق الرابع منها، فقد كان حمام فيها يتسرب منه الماء إلى الداخل لم يجد من يصلحه، وظل يطلق تلك الروائح الخبيثة.

جلسنا في المسجد مع إمام المسجد واثنين من الإخوة المسلمين ومعنا مرافقنا الشيخ (نفيع الله) الذي هو مسؤول نظرياً عن الشؤون الدينية في هذه المنطقة، وهو مسؤول أمام نفسه وأمام المسلمين من الناحية الاجتماعية، وإلاّ فإن الحكومة لا تدفع له أي راتب، ولا تعطيه صفة رسمية قانونية لعقد عقود، مثلاً باسم الإدارة الدينية للقسم الآسيوي من

روسيا.

في محراب قرية سومكينو: الكاتب على يمينه الشيخ نفيع الله، فإمام المسجد. وبدت في الصورة ثلاث من الأخوات المسلمات المسنات اللاتي حضرن للصلاة في المسجد

وحدثونا عن المسجد بأنه أول مسجد يبنى في القرية، وليس قبله مسجد، وبالتالي هو المسجد الوحيد فيها، قال الإمام: لم يكن في القرية مسجد من قبل، لأنها قرية روسية في الأصل، ولكن في عهد (خروشوف) الأمين العام للحزب الشيوعي الروسي آنذاك، الذي هو بمثابة رئيس الجمهورية قد أمر بضم سكان بعض القرى الروسية إلى سكان القرى التتارية، والعكس بالعكس، وذلك بزعمه من أجل الاختلاط بين الطرفين.

قال: ولم يكن قبل ذلك في هذه القرية مسلمون، فنزلها التتار (المسلمون) حتى ألفوا (٤٠٪) من سكانها.

فسألته عما إذا كانت توجد حزازات أو خصومات بين الطرفين الروسي والتتاري؟ فذكر أنه لا توجد أي حزازات ولا مخاصمات، وأن الجميع يعملون في القرية كل على حسب طريقته، فقلت في نفسي: ربما كان ذلك للتربية الشيوعية التي تجعل كل شخص ينشغل بتدبير أمور نفسه، إضافة إلى العيش المشترك بين الطرفين لعدة قرون.

وقال الإمام: حتى السلطات الحكومية لا توجد مشكلة بين أهل القرية بفريقيها وبينها، فقلت له: هذا يدل على الخمول، وعدم الحركة، وإلا فإنه ينبغي أن تكون هناك خلافات، بل خصومات حول تقصير السلطات الحكومية في العناية بمرافق القرية، كالطريق الرئيسي الذي كان مزفتاً وذهب زفته فصار أكثر (زفتاً)، وحول الشوارع والأزقة التي لم تزفت أصلاً.

وفيما يتعلق بعمارة المسجد ذكر أن القسم الرئيسي منها جاء إليهم من (دار البر) في دولة الإمارات العربية المتحدة، وأنهم أكملوه من أنفسهم فجمعوا لذلك ما كفاه.

وقد أعطينا أهل هذا المسجد مساعدة عاجلة لإكمال السور الخارجي للمسجد الذي وجدناه ناقصاً لكونهم لم يستطيعوا أن يجدوا النفقة اللازمة له، وإلاّ فإن المسجد في حالة جيدة، ويدل على العناية الكاملة به.

وقد تمشيت قليلاً أتتبع الأماكن المرتفعة قليلاً لأن مناقع المطر قد انتشرت فيها، فكان من أعجب ما فيها هذه الصفوف المنتظمة من البيوت التقليدية الخشبية ذات السقوف من الصفيح الذي علاه الصدأ.

وحتى المظهر الخارجي للبيوت أثرت الأنداء والثلوج على مر السنين في منظره، وإن لم تؤثر على قوته، لأن خشب الحيطان الخارجية يكون قوياً

بحيث يشقون الخشبة الضخمة إلى قسمين: الخارجي وهو غير المستوي منها يكون في الحائط من جهة الخارج، والداخلي الذي هو مستوٍ لأنه قلب الخشبة يكون للداخل.

ورأيت لأول مرة غنماً ترعى الحشيش في شارع في القرية، وهي صغار الأحجام، بالنسبة إلى غنمنا النجدية الكبيرة، وليست لهذه الغنم أليات كبيرة، وإنما هي أليات خفيفة كالأذناب، إلا أن على أجسامها أصوافاً كثة، وهي سكرية اللون، أي في ألوانها بياض فيه كدرة، بحيث تبدو لمن لا يعرف الأمر كأنما اتسخت أجسادها، وتحتاج إلى غسل، والأمر ليس كذلك ولكن هذه طبيعتها.

وفي نهاية اللقاء ودعنا إمام القرية الأخ (فتح الله بن سعيد الله) وذهبنا إلى شاطئ نهر (إيرتيش) الذي تقع عليه القرية، فلم نجد طريقاً للسيارة إلا عند مدخلها الخارجي، ورأينا النهر ضخماً فيه سفن كبيرة تحمل الركاب والبضائع، وفيه أيضاً سفن من التي تشبه الأرماث وهي التي ليس لظهورها حيطان ولا أسقف، لأنها مخصصة لنقل بعض الأشياء والبضائع التي لا تحتاج إلى ذلك مثل الأخشاب التي هي كثيرة، لوجود الغابات في هذه المنطقة، كما في أنحاء سيبيريا.

وكان وقوفنا عند ميناء نهري كبير.

والتقط الرفاق صوراً تذكارية على ضفاف نهر (ايرتيش) الذي يدل اسمه في اللغة التركية القديمة على حافر الأرض، لأن مجراه منخفض في أكثر الأماكن.

ورأيت قطيعاً من الخيول، ذكروا أنها لأهل القرية، وليست خاصة بشخص أو حكومة، وأنها ترعى من هذا العشب الوافر، وأن أهلها حتى إذا أهملوها وجدوها بعد ذلك، لأنها معروفة، إلا أن التتار يحبون ألبان

الخيل، لذلك يحلبونها ويشربونه، كما أنهم يحبون أكل لحوم الخيل هم وإخوتهم المسلمون من القازاق.

وقد شربت ألبان الخيل، وأكلت كثيراً من لحومها في هذه السفرة، وذكرت ذلك في الكتاب الأول عن هذه الجولات السيبيرية بعنوان: « في غرب سيبيريا ».

قرية يورشاق:

ذهبنا إليها حيث اخترقنا الطريق العام الذي تقع قرية (سومينكو) شرقه إلى غرب الطريق، حيث قرية تسمى (يورشاق)، كان الذهاب إليها من أجل الاطلاع على مسجد قديم فيها، وهي داخلة عن الطريق العام بحيث لا يصل إليها إلا من يقصد ذلك.

أول ما رأينا من القرية على البعد منارة مسجدها، وهي والمسجد نفسه أعلى ما في القرية، ولكنها فرحة لم تتم، بل انقلبت إلى ترحة، بل غصة في الحلق لم نستطع أن نقاوم أثرها إلا بعد ذلك بزمن.

حيث وجدنا أن هذا المسجد الشامخ البنيان الذي بناه الأجداد من أهل القرية قد أهمله الأحفاد، ولم يحفلوا حتى بإصلاحه وترميمه من الناحية المظهرية، وإنما تركوه خرباً منزوع الأبواب والنوافذ، تكاد منارته تسقط لولا أنها من الخشب القوي.

وقفنا نتأمل المسجد بحزن وأسى، ولم يكن بقربنا أحد من أهل القرية إلا صبية يلعبون الكرة في أرض ربما كانت في القديم جزءاً من أرض المسجد، لأنها خالية من العشب الكثيف الذي يغطي أرضها.

وجاء رجل متأنق، ولا حاجة إلى القول بأنه مسلم، أو هو - على الصحيح - من أبناء المسلمين، لأنه لا يوجد في هذه القرية أحد من غير

التتار المسلمين، اسمه (بكر بن عبد الرحيم) سألناه عن المسجد، فقال: هذا شعب مذنب، لأنهم نزعوا نوافذ المسجد، وهكذا لم يرَ الذنب إلا في نزع نوافذ المسجد المهجور، ولم يره في تركهم صلاة الجمعة والجماعة تركاً جماعياً متعمداً.

ومع ذلك رأيناه يتكلم بفخر عن قضية قال: إنها حصلت عندما استولى الشيوعيون على المسجد وجعلوه نادياً للشبيبة الشيوعية، قال: وكانت المسؤولة الشيوعية في القرية قالت لهم: أي لأهل القرية من الشيوعيين، سواء أكانوا صادقين في شيوعيتهم أم متظاهرين بذلك للمصلحة المعيشية: إما أن تنزعوا الهلال من فوق منارة المسجد، وإلا لم أعطكم رواتبكم. قال: فأبوا ذلك، وبقي الهلال على المنارة.

ولكن المسجد بقي أيضا ضائعاً مهملاً، وهو المسجد الوحيد في المنطقة الذي بقي كذلك، قلت لبكر بن عبد الرحيم: أين يصلي أهل القرية وأنت تقول: إنهم كلهم مسلمون؟ فقال: لا يصلون. قلت: ولا أنت؟ فأجاب: أنا مثل غيري في عدم الصلاة.

ثم استدرك قائلاً: لا يصلي من أهل القرية أحد إلا امرأة واحدة تذهب للصلاة في القرية المجاورة، وهي قرية رأينا مسجدها على البعد، وسوف نزورها بعد ذلك.

قلت له: وقد تبين أنه مثقف مطلع: كم عمرك؟ فأجاب؟ ٦٢ سنة. قلت له: كيف لا تفكر فيما أعطاك الله من العقل وفهم الأمور، وتقوم أنت بتأليف جمعية إسلامية تكون أول مهامها أعمار المسجد: وتهيئته للمصلين ؟.

وقلت له: ماذا تقول أمام الله سبحانه وتعالى إذا سألك يوم القيامة عن هذا الأمر، بل ماذا تقول للتاريخ وللمسلمين في خارج هذه المنطقة من

أنكم تركتم المسجد خراباً مهجوراً وانتم قادرون على إعماره، مثلما رأينا القرى الأخرى فعلت ؟

فقال: أنا عملت أشياء، منها أنني حصلت مقبرة للمسلمين، فقلت له: إن الحصول على أرض في قرية صغيرة جميع أهلها مسلمون أمر سهل، لأنه لا أحد يزاحمهم عليه، والأراضي الخالية الحكومية تحيط بالقرية إلى مسافات بعيدة.

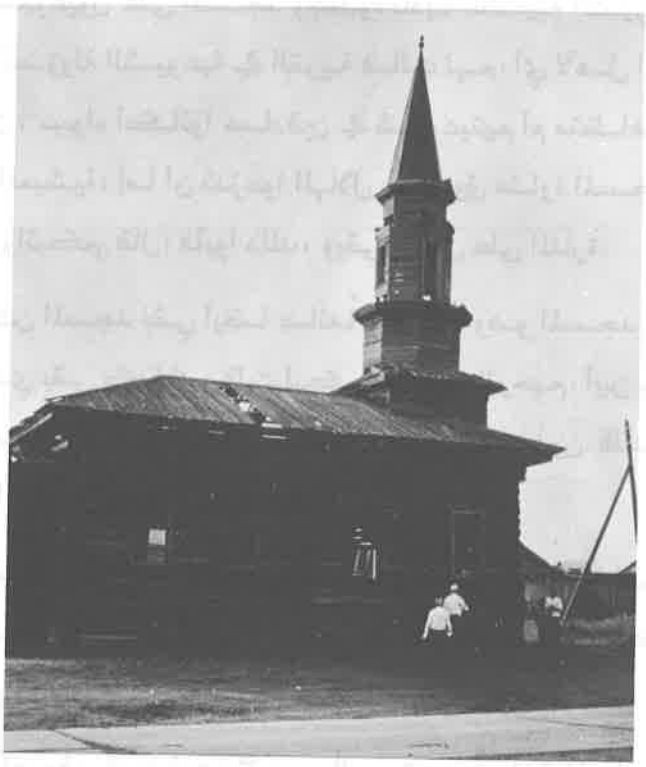

المسجد المهجور في قرية يورشاق

قال: وبخصوص المسجد حاولت جمع التبرعات ولم... ! ثم توقف عن الكلام لأنه تبين أنه مثل غيره من المهملين الضائعين، وربما يصدق على أمثالهم قول الله تعالى: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ فقلت له: إن أمامك فرصة ذهبية في عمرك، هي أن تعمل عملاً صالحاً وتجمع التبرعات للمسجد من أهل القرية وغيرها، ونحن نبدأها بمبلغ خمسمائة دولار معجلة نضعها عند

الشيخ (نفيع الله) رئيس الإدارة الدينية في تومين، فإذا لم تكف مع ما تجمعونه لذلك أعطينا كم ما يكفي، شرط أن يكتب لنا الشيخ المفتي نفيع الله بذلك.

فلم يستجب لهذا العرض.

فسألته عن تاريخ المسجد فقال: هو قديم، عاش والدي ٨٦ سنة ومات وهو لا يعرف متى بني، لأن المسجد كان موجوداً قبل ولادته.

فقلت له: كيف تقول: إن أهل القرية مسلمون وهم يستطيعون أن يرمموا المسجد ويهيئونه للصلاة، ولكنهم لا يفعلون؟ فهل معنى ذلك أنهم يصلون في بيوتهم الآن؟ فقال: لا، هم لا يصلون.

ثم نادى على الصبيان والفتيان الذين يلعبون الكرة بالقرب منا فقال: اسألوهم عن دينهم، فصار الشيخ (نفيع الله) يدعوهم واحداً واحداً ويسألهم عن دينهم فيقولون: إنهم مسلمون.

ومن الطبيعي أن القول باللسان وحده لا يكفي، ولكن هذا مما يسر أنهم لا يزالون يعرفون الانتماء الإسلامي وإن لم يحققوه، لأنهم قد يفعلون ذلك في المستقبل.

ورأينا جماعة من بنات المسلمين من الشابات ذوات المظهر الجيد، فرأينا أن ملابسهن أفضل من ناحية التستر من ملابس الروسيات، بل لم أرَ تهتكاً ولا تبرجاً فيها.

ويبلغ عدد بيوت القرية خمسة وستين بيتاً إذا قلنا إن معدل من في البيت هم خمسة أشخاص، يكون عدد سكانها ٣٥٠شخصاً.

وقلت للشيخ (نفيع الله): إن علاج الحالة في هذه القرية وأمثالها يكون في تخصيص إمام لهم، نحن في رابطة العالم الإسلامي مستعدون

لدفع راتبه، ويكون من أهل المنطقة الذين يعرفون اللغة التتارية لغة القوم، ولا يشترط أن يكون حاصلاً على الشهادة الجامعية، بل يكفي أن تكون لديه حماسة للعمل الإسلامي، حتى يتبنى جمع التبرعات لإصلاح المسجد، وفي الوقت نفسه وبعد ذلك ينصح أهل القرية ويحثهم على الصلاة، وهم بلا شك مستجيبون، أو أن بعضهم سوف يستجيب بإذن الله.

وقرية سابا ناكي:

غادرنا قرية (يورشاق) ولم يغادرنا الحزن والألم على حالة مسجدها، بل حالة المسلمين فيها، فوصلنا بسرعة إلى قرية أخرى غير بعيدة منها اسمها (ساباناكي)، كان أول ما رأيناه على البعد منها منارة المسجد والمسجد نفسه الذي يرى شامخاً على البعد.

وفي هذه القرية وجدنا المسجد معموراً معتنى به، والمقصود بعمارته عمارته بالصلاة، وعمارة مبناه أيضاً.

وأول العناية فيه أننا وجدناهم كتبوا على بابه الخارجي: (بسم الله الرحمن الرحيم مسجد القرية باسم الشيخ إمام الدين).

ومعنى باسم الشيخ أنهم سموه مسجد الشيخ (إمام الدين)، وهو عالم دين معروف في المنطقة.

والمسجد مقام من الخشب القوي المنسق، وحتى منارته فإنها خشبية أيضاً، ولكن تبين من حالة عدد من المساجد المبنية بالخشب في المنطقة، أقربها المسجد المعطل أن المنارة الخشبية قد تمضي عليها أكثر من مائة سنة، ولم يطرأ عليها شيء من الخراب.

وجدنا المسجد مغلقاً لأن الوقت ليس وقت الصلاة، بل بقي قليل على

غروب الشمس وما تزال حية، وحاولنا أيضاً أن نجد واحداً من المارة من أهل القرية لعله يخبر بنا إمامه، أو رئيس الجمعية المشرفة عليه، فلم نجد في القرية ماشياً قط.

مع العلم بأن بحثنا كان مقتصراً على ما حول القرية، وليس على القرية كلها.

محراب مسجد خشبي في سيبريا

ولكننا سمعنا بعد ذلك أن سكان القرية هم ما بين خمسمائة وستمائة نسمة وهي عامرة، حتى إننا رأينا قرب المسجد بيتاً في فنائه المكشوف بقرتان، وهما أول بقر نراه في بيت من بيوت القرية، وحتى الأشجار فيها نضرة.

أقدم مسجد في المنطقة:

سلكنا الطريق العام حتى حاذينا قرية (تابول بورا) التي يوجد فيها أقدم مسجد في المنطقة، حتى إنه أقدم من مسجد مدينة (توبولسك)، ولا يعرف تاريخ بنائه لقدمه، ولكن القدم عندهم نسبي.

وصلنا إلى القرية مع غروب الشمس حيث لم يبق إلا ربع ساعة أو نحوها على الغروب، فسلكنا شارعاً واحداً فيها مزفتاً، ثم صارت كل شوارعها التي مررنا بها ترابية، بل طينية سيئة المظهر، بسبب مطر أصابها اليوم، ومما زاد منظرها سوءاً أن أرضها طينية سوداء، وأنها وهي زراعية يوجد في بعض الأماكن المتسعة من شوارعها أكوام من السماد الطبيعي المعد للزراعة.

وبجانب بعض البيوت أمكنة العلف الذي قطعوه علفاً للحيوان في الشتاء، وقد جعل المطر بعض شوارعها موحلة، وهم مع ذلك في غاية من صفاء اللون، فهم شقر مثل الروس الذين يساكنونهم في المنطقة، أو هم أكثر شقرة في الشعر منهم، وهم بيض أصفى ألواناً في ذلك من الروس.

وكلهم من التتار المسلمين.

لاحظت شيئاً جديداً في بيوت القرية وهي أن سقوفها من ألواح الخشب الذي جعلوه فوقها على هيئة سنام البعير، وليست من الصفيح كما هو المعتاد في سقوف أكثر بيوت المنطقة.

وصلنا المسجد، ووقفنا عنده قليلاً ننتظر أن يصل رئيس الجمعية لأن مرافقنا الشيخ (نفيع الله) كان قد أوصى أحد الإخوة بإخباره بقدومنا، وقد تبين أنه عرف ذلك، ولكنه ظن أننا سنصل الخامسة، فانتظر طويلاً ثم انصرف.

وجاء أحد الإخوة من جماعة المسجد واسمه (صدر الدين عبد السلام)، عمره ٧٥ سنة، وقال: رأيت بعيني كيف نزع الشيوعيون منارة المسجد، وعمري إذ ذاك ثمان أو عشر سنوات، وقال: جعلوه مدرسة، ثم نادياً للرقص، ثم مستودعاً، ثم مقراً للإدارة المحلية. قال: وكانت منارته في الوسط فهدمها الشيوعيون.

ثم استرجعته الجمعية الإسلامية في عام ١٩٩١م، وأول ما صنعته أن أعادت بناء منارته من الآجر الأحمر القوي، وقال: هو قديم تدل أوراق ورد ذكره فيها لها ٢٥٠سنة.

كنا نتحدث مع هذا الأخ وأخوين آخرين غيره، وهما من جماعة المسجد، ولكننا نريد أن نرى رئيس الجمعية الإسلامية التي تشرف على عمارته، فدخلنا ووجدنا أنه بقي عليه شيء كثير حتى يكون جاهزاً للصلاة فيه، لأن الإخوة كانوا جمعوا كل ما استطاعوا جمعه وسقفوه تسقيفاً قوياً، وجعلوا له قبة بيضاء، من الحديد الأبيض المقاوم للصدأ، يعلوها شاهد قوي فوقه هلال بدون نجمة، وكذلك المنارة أعلاها حديد أبيض ناصع.

مسجد قرية تابول تورا تحت الترميم

ومن الطريف الذي يدل على قدم عمارة هذا المسجد فضلاً عما سبق أن القوم اختلفوا في اسم الشخص الذي بناه أول مرة، فذكر بعضهم أنه رجل اسمه (قبشان)، لا يعرفون من اسمه غير ذلك، وأنه وجد كنزاً مدفوناً في الأرض فبنى منه هذا المسجد.

وقال أحد الذين حضروا من أهل القرية واسمه (عريف بن كريم)، وعريف هي عارف: إنه قديم لا يدرى من بناه، وأن الذي بناه أنشأ مصنعاً للفخار الذي بناه به من نوع خاص.

وذلك أن بناءه متميز على أبنية غيره من المساجد، إذْ هو مبني من الفخار الأحمر القوي.

كنا نجاهد في ذود البعوض أو حشرات لا سعة تشبهه، وقد تكاثرت عند غروب الشمس، وقال أحدهم وقد رآنا كذلك: إنها لا تؤذي، إنها تريد أن تمتص ما تحتاجه من الدم.

فسألته عما إذا كانت تسبب أمراضاً لمن تلسعه ؟ فقال: لا.

ورأيت أكواماً من الخشب بجانب المسجد للبيوت المجاورة، لأن بعضها أخشابه موضوعة بقربه، وكلها وقود معدّ لبرد الشتاء السيبيري القارص، وكونها قرب المسجد، لأن فيه أرضاً خالية تابعة له، وقد شققوا هذا الخشب وكسروه للوقود.

وليس من الخشب الذي تبنى منه البيوت، وعلى ذكر ذلك أقول: إن جميع بيوت القرية مبنية من الخشب، ما عدا المسجد فإنه مبني من الآجر، وليس فيها بيت أو مبنى بالإسمنت المسلح.

وعندما كنت أترك النظر إلى الإخوة، ولا يكون في الشارع أطفال أو بنيات جميلات، وأنظر إلى حالة الشوارع وبيوت الخشب التي تشبه الأكواخ على البعد، أتخيل أنني في إفريقية ولست في سيبيريا، إلا أن

مجرد وصول أطفال يعيدني إلى صوابي، لأنهم في لون أكثر بياضاً من الأوروبيين، لأنهم أصفى ألواناً منهم، والشقرة في الشعور هي الغالبة عليهم.

كما بحثنا عن إمام المسجد فتبرع أحدهم بالذهاب معنا إلى بيته فوجدناه شيخاً مسناً، قال لنا: إنه مشغول في البيت، لأنه يحلب البقرة بنفسه، ويعمل أعمالاً أخرى بنفسه، لأن زوجته بلغت الثمانين من العمر، وصارت عاجزة عن العمل، وأما هو فإنه يكبرها بسنتين لأن عمره ٨٢ كما قال.

أخذنا الإمام إلى المسجد، وصار يحدثنا عن بعض ما نريد أن نعرفه، وبعضه لا نعرفه، ونحن ننتظر مجيء رئيس الجمعية الإسلامية لأنه مثقف، ويعتبر رئيساً لكل ما يتعلق بالمسجد، بل بالشؤون الإسلامية في القرية، لأنه هو رئيس الجمعية الإسلامية فيها.

ثم جاء واسمه (إسحاق بن طلعت)، وهو رجل رزين هادئ، لا يبدو كبعض الذين رأيناهم قبله من أهل القرية، كالريفيين الذين لا يدركون معاني بعض الأمور الحديثة.

قال: يبلغ عدد البيوت في القرية (١٥١) داراً، كلهم مسلمون، ليس بينهم روسي واحد.

وقال: لقد استعدنا المسجد في عام ١٩٩١، وكان خرباً إلى درجة لا تصدق، وقد جمعنا ما استطعنا جمعه، وبدأنا العمل به غالياً جيداً، لكي نعيد المسجد إلى ما كان عليه في السابق، ثم وقفنا عن العمل فيه لقصور النفقة، ولم يساعدنا أحد من أجل الضائقة المالية التي تمر بها البلاد في الوقت الحاضر، ما عدا هذا الآجر الأحمر الذي تبرع به عيناً أحد الأشخاص.

قال: وقد طال انتظارنا، وضاقت صدورنا، فمسجدنا بيدنا، ونريد

إنهاء عمارته لنصلي فيه، ونجعل جزءاً منه مدرسة، ولكن ليس بيدنا حيلة، فنظفنا جانباً منه من مخلفات البناء، وأدخلنا فيه مصباحاً كهربائياً مددنا له سلكاً من الخارج، على ضعف الكهرباء في القرية، وصرنا نصلي فيه، وندعو الله تعالى أن ييسر لنا إكمال ترميمه.

قال: وقبل ذلك جاءنا وفد قال: إنه من إحدى التلفازات، وإنه يبحث عن المساجد الأثرية لتصويرها، وقد رحبنا به، وأخبرناه بما يريد أن يعرفه عن المسجد، وطلبنا منهم المساعدة على إكمال بناء المسجد الذي شاهدوه، ولكنهم لم يفعلوا، وقد مضت نحو أربعة أشهر على ذلك.

وسألهم الشيخ (نفيع الله) عن كونهم لم يعملوا شيئاً الآن، بما لا يستدعي نفقة كبيرة، فذكروا أنه لا يوجد عندهم الآن في الجمعية إلا أربعة آلاف روبل أي نحو (١٦٠) دولاراً أمريكية.

كان القوم قد تجمهروا حولنا، وبخاصة منهم الذين جاؤوا للمسجد للصلاة، وقد حضروا قبل غروب الشمس، وانضم إليهم غيرهم، فقلت لهم وعلى رأسهم رئيس الجمعية: إننا سنساعدكم إن شاء الله، ليس على إنجاز ما توقف من البناء فحسب، وإنما على إكمال المسجد حتى يصبح مسجداً يسر العين منظره، وتطمئن إليه قلوب الناظرين، فضلاً عن المصلين، وسوف ندفع لكم الآن (٣٠٠٠) آلاف دولار أمريكية، وهي تعادل (٧٤) ألف روبل، وهذا كافٍ لاستئناف العمل في المسجد كما فهمنا منكم ومن غيركم في هذه البلاد، وإذا فرض أنكم أنفقتموها كلها، ولم ينتهِ العمل، فإنه يمكنكم أن تكتبوا لنا بذلك تقريراً يصدقه الشيخ (نفيع الله عشيروف) هذا الحاضر معنا الآن، وتذكرون فيه ما أنجزتم من العمل، وما بقي منه يحتاج إلى إنجاز، وكم المبلغ اللازم لذلك، وسوف نرسل ذلك إليكم من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

بدا العجب الممزوج بالفرح في عيونهم، فلم يكونوا يصدقون أن تأتي هذه المنحة الجيدة دفعة واحدة، دون أن يعملوا شيئاً، وقال بعضهم: الله أكبر، وقال آخرون: لا إله إلا لله، وكاد بعضهم يبكي، أو هم بكوا ولكنهم غالبوا دموع الفرح.

وقد شرحت لهم مهمتنا، وأننا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وأن إخوانهم في المملكة العربية السعودية متشوقون لسماع أخبارهم، لذلك جئنا لهذا الغرض من بلادنا، ليس لنا غرض آخر لا دنيوي ولا غيره.

ثم طلبنا منهم أن يحضروا الأوراق الرسمية للجمعية والمسجد والأختام، فذكر رئيس الجمعية أنها عنده في بيته، وكانت الشمس قد غربت، فذهبنا معه إلى بيته ومعنا أربعة، منهم الإمام، ورأينا أن شوارع القرية غير مضاءة، وقالوا لنا: إن الإضاءة في هذا الفصل من السنة غير لازمة، لأن النهار طويل والليل قصير وهو غير مظلم أيضاً، فلا يحتاج السائر فيه إلى إضاءة، فقلت لهم: وماذا عن الشتاء حين يكون الأمر عكس ذلك؟ فذكروا أن الشوارع تضاء رؤوسها إلى أقاصيها التي فيها مفارق الشوارع بمصابيح كهربائية، وإلا فإن الشارع إذا كان مستقيماً فإنه لا يضاء كله، مع أنهم - كما قالوا - لا يحتاجون إلى إنارة الشوارع في الشتاء، لأنه لا أحد يسير فيها لشدة البرد، وإنما يبقون في بيوتهم المدفأة.

هذا مع العلم بأن الكهرباء موجودة في القرية، ولكن حتى البيوت التي دخلتها تقتصد في إنارتها، وقد رأيت ذلك في بيت رئيس الجمعية.

وجدنا عند باب بيته كلباً ذا شعر كث وأرجل قصيرة، وقال مثلما قال غيره: إن الكلب هنا لا زم للحراسة في الليل، ولكن كلبه هذا

مؤدب، إذْ نهاه عن أن ينبحنا فانتهى، خلاف كلب شرس وجدناه في بيت رئيس جمعية مسجد القرية الأولى التي زرناها في هذا الصباح (فمبا بيفا) الذي كان شرساً إلى درجة أننا خفنا منه وهو مربوط، لأنه كان يواصل النباح والتحدي مع كون صاحبه يسكته.

ودخلنا بيته وهو من الخشب له درجة خشبية خارجية، ولكنه يبدو كما لو كان من الإسمنت المسلح، لأنه مطلي بطلاء مناسب، وفي قاعة الجلوس خزانة مليئة بالكتب، بادر إلى مصحف فيها وطلب مني أن أكتب فيه نصيحة لهم، أي في الصفحة البيضاء التي قبل المصحف، فكتبت كلمة مختصرة أوصيتهم فيها بتلاوة القرآن الكريم، وتفهم معانيه، ولو عن طريق قراءة ترجمتها بلغتهم.

وأوصيتهم بتربية أولادهم تربية إسلامية، لأنهم أمانة في أعناقهم، لا سيما بعد أن يكمل المسجد، ويكون فيه تدريس لهم وإرشاد للكبار، وقلت: إن شعب التتار الذي صبر على دينه، وصمد للمحن منذ سقوط دولته الإسلامية، حقيق بأن يستأنف النشاط الإسلامي، وبخاصة في هذه الظروف المواتية لذلك في الوقت الحاضر.

جرى حديث مع الحاضرين في بيت رئيس الجمعية، فحدثنا عن نفسه بأنه كان مدير مدرسة قبل تقاعده، وكان قبل ذلك معلماً، وهو يحمل رتبة عالية في التعليم، وعندما تقاعد قبل ثلاث سنين صار راتبه التقاعدي الشهري (٤٩٠) روبلاً، وذلك يعتبر كبيراً بالنسبة إلى غيره من المتقاعدين، ومع ذلك فإنه صغير لا يكاد يمسك رمقاً بالنسبة للواقع، فهو يعادل (٢٢) دولاراً أمريكية في الشهر، ولكن الأسعار قد ارتفعت حتى صار الروبل لا يأتي إلا بربع ما كان يأتي به من السلع قبل سنتين، أو كما قال أحدهم بأن الأسعار تزيد والرواتب لا تزيد.

يفتخر بقراءة الفاتحة:

سلمناهم مجتمعين المبلغ، وصرنا نتحدث في الشؤون الإسلامية في هذه البلاد، وقال أحدهم وهو كبير السن مثل بقيتهم: إن فلاناً وأشار إلى أحدهم يحسن قراءة الفاتحة، فقرأها قراءة قريبة من الصحة، وقال وهو يفتخر بذلك: لقد سمعتها من أبي، وسجلتها على شريط، وصرت أكرر الاستماع إليه حتى حفظته.

وكان يقول ذلك بفخر وزهو ظاهر، مما يدل على تأثير الدعاية الشيوعية الملحدة المسلطة عليهم في تقليص الثقافة الإسلامية أو محوها من هذه البلاد.

وفيما يتعلق بالإدارة الحكومية وتقصيرها في توفير ما تحتاجه القرية أجابوا بأن الدولة فقيرة، فهي تعلم حالة القرية، ولكنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً.

وقال أحدهم وصدقه الآخرون: إنه حتى المستشفيات الحكومية إذا ذهب المريض إليها فإنه لا بد أن يحضر معه فراشه والفوط التي يحتاجها، وأن يشتري الدواء الذي يكتبه له الطبيب، لأن ذلك لا يتوافر فيها.

ومع ذلك لم أرهم يتذمرون إلى حد السخط والتمرد، وذلك أن كثيراً منهم إن لم يكونوا أكثرهم، يرون أن هذه الحالة الصعبة أسهل وأقل سوءاً من الحالة في عهد الشيوعية التي صادرت الحريات، واستخفت بحقوق المواطنين، وطبقت السخرة والعسف في العمل أو السكن عليهم، وكلهم يأمل أن تزول هذه الحالة الاقتصادية السيئة، فينعموا إلى جانب الحرية التي يتمتعون بها الآن بالعيش المعتاد.

هذا وقد كرم الأخ (إسحاق طلعت) فأحضر مائدة من الطعام لم نكن في حاجة إليها، لأننا كنا قد أكثرنا من أكل اللحم والشحم قبل

قليل من الوقت في مدينة (توبولسك)، ومائدته سريعة، فيها الزبد والقشدة (القشطة) والخبز والحلوى والشوكولاته المقرطسة، وهي المغلفة بالقرطاس، كما أحضر الشاي والقهوة.

واحتجت قبل أن ننطلق في رحلة دون توقف أن أدخل الحمام، وكنت ظننت أنه في داخل البيت، فخرج بي بعد غروب الشمس في جو منير، حتى إن الشمس كما لو كانت تحت غيم ثقيل، وهي تحت ظل الأرض الخفيف في هذا الفصل الصيفي في طرف العالم الشمالي، وقادني يحمل إبريقاً فيه الماء إلى (المرحاض) في مكان بعيد من البيت على الطريقة الموجودة في بلاد ما وراء النهر وما كان عنها شمالاً، بأن يكون (المرحاض) حفرة كبيرة فوقها غطاء من الخشب، فيه فتحة واسعة يستعمل فيه الماء، وذلك أنه لا توجد مجاري للمياه في القرية، وإن كان الماء الجاري موجوداً في داخل البيت للطبخ والوضوء والتنظيف ونحو ذلك.

وتصورت الذهاب إلى هذا المكان في درجات التجمد المنخفضة، ففزعت من تصور ذلك، ولا أقول ذلك إنكاراً على عادتهم القديمة تلك، فنحن كنا نفعل مثل ذلك في بيوتنا الطينية القديمة؛ حيث يكون المرحاض في أقص الحوش من البيت، وكنا نخرج إليه في الشتاء إذا احتجنا إلى ذلك مع شدة البرد، ولكننا كنا نعود من ذلك إلى النار الموقدة داخل البيت فيزول ما يكون فينا من البرد.

العودة إلى تومين:

غادرنا قرية تابول تورا في الحادية عشرة وقد غربت الشمس منذ قليل، ولكن النور كان غامراً بحيث لو أراد سائق السيارة إطفاء مصابيحها لاستطاع الاهتداء بنورها وهي كذلك.

سلكنا الطريق الذي جئنا منه، وهو طريق واحد تتقابل فيه

السيارات الذاهبة والآيبة من دون فاصل بينها إلا خط من الصباغ الأبيض.

وقد أخذ سائق سيارتنا يسرع بسيارته حتى اضطررت لتنبيهه إلى ذلك، وعدم السرعة، ووصل الطريق إلى نقطة للشرطة لم نحس بها في النهار، ذكروا أنهم لا يعملون إلاّ في الليل، فهم يسجلون السيارات التي تسلك هذا الطريق في الليل، وقد تجمعت السيارات في صفوف، فذهب سائقنا بنفسه مع أوراق السيارات وسجلها دون أن يطلبوا منه أن يرونا، ودون أن يفتشوا السيارة، وبعد أن انطلق السائق بأقصى سرعة فوجئنا بشخصين يقفان في الظلام كاد يصدمهما، لأنهما كانا شبه عاريين، ولا يدري السائق هدفهما من الوقوف في الطريق، بل قال: إنهما ربما كانا سكرانين.

هذا والسيارات كثيرة في الطريق في هذا الليل، مثلما كانت عليه في النهار وأكثر من ذلك.

وهذا دليل على الأمن الموجود في الطرق، وإلا لما حرص الناس على السفر ليلاً، وهناك أشياء أخرى تدل على الأمن المتوفر من كونه لا يوجد في الطريق، ولا بين المسافرين تحذيرات من عدم الأمن، أو من السرقة أو نحو ذلك.

وعلل الإخوة ذلك بكون الشرطة موجودين وهذا صحيح، فنحن لم نرهم في النهار، ولكنهم في الليل ظهروا بسياراتهم، وأثبتوا وجودهم من غير أن يكونوا قد اعترضوا المسافرين.

قمرنا ليس كقمركم:

ليس في هذا القول سذاجة، إذ المراد بالقمر هنا موضع القمر في رأي العين، أو منازله المعروفة عندنا، فقد كنا متجهين إلى الجنوب، ذاهبين إلى تومين، والليلة هي الثانية عشرة حيث لم يبق على كون القمر بدراً إلا

ليلتان.

وقد رأيت القمر طلع من غير مطلعه عندنا، فهو في الجهة اليسرى من الجنوب، ولم يصل إلى أن يكون في الجنوب الشرقي، وقال لي أحدهم: إن قمرنا غير قمركم.

فقلت له: كيف يكون ذلك؟

فقال: قمرنا لا يتوسط السماء أبداً، بل لا يرتفع عن الجنوب مطلقاً، وكانت هذه فرصة لمراقبته من السيارة والجو صاحٍ، فرأيته بالفعل طلع من الجهة التي ذكرتها، وهي أيسر الجنوب لمن يكون وجهة تلقاء الجنوب، وقفاه إلى جهة الشمال، وبسرعة معتادة أرتفع قليلاً إلى السماء، ثم وقف عن الارتفاع، وبقي كالمعلق في السماء، بمعنى أنه لا يتزحزح في رأي العين عن موضعه، وقد ظل كذلك فترة حتى غرب في أيمن الجنوب.

إن هذه حقيقة رأيتها بنفسي، وهذا تفسيره ظاهر، وهو أننا الآن واقعون في أقصى شمال الأرض، ولكن هذا ليس وحده السبب، وإنما السبب هو تحديب الأرض، بمعنى اختلافها في الشكل عن خط الاستواء، وما كان قريباً منه شمالاً، ثم تأخذ في الانكماش في جهة الشمال حتى يتلاشى ذلك عند القطب الشمالي، بحيث لا ترى الشمس في الشتاء، ولا تغيب في الصيف.

والشيء الذي لم أفهمه ولم أكن أتصوره من قبل، هو لون القمر هنا، فهو أجمل من لونه في بلادنا، فهو هنا ذهبي اللون، والمراد منظر القمر نفسه، وليس القمراء التي هي نوره، فهي هنا ضعيفة، لأن نور الشمس لا يزال يغمر الأفق رغم غروبها كما سبق.

وقد حاولت أن أطرد ذلك عن ذهني لئلا يكون وهماً، ولكن تبين لي أنه صحيح، وخيل إليَّ أن ذلك راجع إلى درجة مواجهة القمر للشمس في

هذه البلاد الشمالية والله أعلم.

وعلى ذكر الشمس أقول: إنها غابت ونحن ننظر إليها في العاشرة والثلث، وبقي الشفق، وهو النور الذي يعقب مغيبها في الغرب، ظل منيراً واضحاً حتى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، ولا شك في أننا لو كنا في آخر شهر يونيو لما غاب الشفق في الغرب قبل طلوع نور الفجر من الشرق.

لأن أواخر شهر يونيو هي أطول أيام السنة هي هذه البلدان الشمالية، وفيها لا تغرب الشمس عن الأماكن القريبة من القطب الشمالي، وقد رأيت ذلك بنفسي أول مرة في مدينة مورمانسك الشمالية، وذكرته في كتاب: « الرحلة الروسية » الذي طبع قبل سنوات.

ولكن العجيب أن الشمس عندهم إذا انصرفت - في رأي العين - عن آخر نقطة وصلت إليها من الشمال، فإنها تسرع في ذلك، ويأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان أكثر مما كان عليه الأمر قبل ذلك.

وكل هذا هو في رأي العين كما قدمت، وإلا فإن الصحيح أن ذلك ليس ناشئاً عن سير الشمس وذهابها شمالاً أو جنوباً، وإنما هو ناشئ عن حركة الأرض حول الشمس، وإلا فإن موضع الأرض من الشمس ثابت، وتنشأ الفصول على الأرض من ميل محورها نحو الشمس في الصيف، بحيث ينشأ عن ذلك مواجهة القسم الشمالي من الأرض لأشعة الشمس، فيكون الجو فيه صيفاً، على حين يكون القسم الجنوبي من الأرض قد مال قليلاً عن مقابلة أشعة الشمس، فيكون الجو فيه شتاء. ومثل ذلك يكون الصيف في جنوب الأرض.

حاولت أن أرى النجوم الشمالية التي كنا نراها في بلادنا جهة الشمال، مثل الجدي والفرقدين وبنات نعش، لأعرف أين تكون من قبة

السماء في هذه الناحية، كما أردت أن أبحث عن النجوم الجنوبية أو الوسطى مثل الثريا والجوزاء والشعرى، لأرى أين يكون موضعها في هذه المنطقة، فلم أستطع، لأن الجو ليس خالياً من الغبار، ولوجود بعض الأضواء في طريق السيارات وغيرها.

هذا وقد استمر سيرنا في الطريق بدون توقف، وكثرت رؤية السيارات بطريقة لافتة للنظر، وبعض السيارات واقفة لغرض من الأغراض، وذلك كله يدل على الشعور بالأمن وعدم الخوف من السطو أو الانتهاب في الطريق، أو اعتراض السيارات.

وحتى مدينة تومين عندما وصلناها في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كانت مصابيح الكهرباء فيها قليلة، وتطلق أنواراً ضعيفة، ولكن الأمر ظاهر من وجود أعداد من الناس في الشوارع، وذلك لأن هذه الليلة هي التي يسفر صباحها عن يوم الأحد، وهو يوم العطلة الأسبوعية في روسيا.

وقد دخلنا الفندق في مدينة تومين في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ولم نر فيه أي حارس في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لا على الباب الخارجي، ولا على المصاعد إلا واحداً وجدناه نائماً على مكتب لم يشعر بقدومنا.

يوم الأحد: ١٤٢٠/٤/١٢هـ

اختتام الدورة التدريبية:

كان الشيخ المفتي نفيع الله عشيروف قد ضمن دعوته لي لزيارة سيبيريا بأن ذلك للاشتراك في حفل اختتام الدورة التدريبية للأئمة والدعوة التي تقام في مدينة تومين بالتعاون ما بين الإدارة الدينية الآسيوية في روسيا من جهة، ووزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف في المملكة العربية السعودية ومؤسسة آل إبراهيم الخيرية التي يمثلها مكتبها في موسكو من جهة ثانية.

وقد رتبنا برنامجنا على ذلك.

يوم الأئمة والدعاة:

يعتبر هذا اليوم بحق يوم الأئمة والدعاة في سيبيريا، والمراد بالأئمة أئمة المساجد، ويشمل ذلك منطقة سيبيريا ومنطقة الأورال التي تفصل بين قارتي أوروبا وأسيا، أي أن حدود القارتين تلتقي فيها.

وصلنا إلى مقر الدورة في مدينة تومين في التاسعة، فرأيت منظراً مهيباً ضم أكثر من (١٨٠) ما بين إمام وداعية من أهل هذه المنطقة التي ظن الشيوعيون الملحدون من الروس وغيرهم أنهم قد أماتوا الروح الإسلامية في نفوس أبنائها، بعد أن عملوا في ذلك أكثر من سبعين سنة ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾.

وقد اجتمع معهم وانضم إليهم في حضور هذه الحفلة الختامية التي هي مهمة لهم، لأنهم سوف يتسلمون فيها شهادات التدريب التي تشهد لهم بأنهم أنهوا الدورة، ضيوف من غير

العاملين فيها، وقد أعلنوا لهم ذلك، وذكروا اسمي لأنني كنت قد قدمت بمعرفة الإدارة الدينية إلى سيبيريا.

إنه من الجميل جداً، بل من المفرح أن تشترك جهتان سعوديتان في الإنفاق على مثل هذه الدورة، وأن تتعاون معهما جهة دينية تمثل المسلمين في المنطقة.

بدأ حفل اختتام الدورة الذي كان مفاجأة لي، فلم أكن أتوقع أنه سيكون بمثل هذه الضخامة والفخامة، ولا أن يكون من يحضرونه بمثل هذه الكثرة والاهتمام به، بتلاوة عطرة من القرآن الكريم، رتلها قارئ مُجيد من القوم.

ثم تكلم الشيخ المفتي نفيع الله عشيروف بالروسية كلمة جيدة، ترجمها لي أحد الإخوة ترجمة فورية، ذكر فيها كيف نفذت فكرة الدورة، وشكر الجهات السعودية التي شاركت فيها، بل أسهمت إسهاماً عظيماً لم تكن الدورة لتتم على ما هي عليه بدونها.

تكلم بعده الأستاذ يوسف الحمودي ممثل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، فأثنى على الإخوة من الأئمة والدعاة الذين حضروا الدورة لتلقي العلم، والذين درسوا فيها، وأشار إلى أن برنامجها تضمن الفقه والتوحيد، وغير ذلك من العلوم الشرعية.

وذكر أن ذلك تم بروح إسلامية عالية، حتى يصح القول بأن الإخوة المشاركين فيها عاشوا في جو إيماني تسوده الأخوة الإسلامية.

وجاملني - جزاه الله خيراً - بأن ذكر حضوري حفل الافتتاح، وشكر اشتراكي فيها.

ثم تكلم ممثل مؤسسة آل إبراهيم الخيرية، فشكر وزارة الشؤون الإسلامية في المملكة العربية السعودية، وأثنى على الإخوة من الأئمة

والدعاة الذين حضروا فيها، وتركوا أولادهم، ودورهم من أجل تحصيل العلم النافع.

وكان عبد الواحد نيازرف قد قدم من موسكو لحضور الاحتفال فتكلم بالروسية، وترجم كلامه أحد الإخوة من روسيا الذين يفهمون العربية، فذكر قدومي إليها، ونوه بذلك، ثم شكر الذين حضروا هذا الاحتفال.

وتكلم بعد ذلك عدد من الحاضرين الذين كانوا على المنصة الرئيسية، وكنت أحدهم.

كلمتي في الاحتفال:

نوَّه عريف الحفل وغيره بالعربية والروسية بأنني سوف ألقي كلمة في الدورة، فتقدمت إلى منصة الخطابة بجانب المنصة الرئيسية، فألقيت كلمة مرتجلة غير مكتوبة، كان أحدهم قد سجلها، ولكن لم تستطع آلة التسجيل التي معه من تسجيلها كلها.

قلت فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الذي هدانا للإسلام، وجعلنا من أتباع خير الأنام، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام الأتمان الأكملان. أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، لقد جئنا من رابطة العالم الإسلامي، من مهبط الوحي، ومنطلق الرسالة المحمدية، نحمل إليكم تحيات إخوانكم المسلمين في المملكة العربية السعودية؛ مسؤولين وغير مسؤولين، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله...

والشكر لله سبحانه وتعالى، ثم لوزارة الشؤون الإسلامية في المملكة

العربية السعودية، ولمؤسسة إبراهيم الإبراهيم الخيرية على تعاونهما مع الإدارة الدينية في هذه المنطقة، في إقامة هذه الدورة المباركة، التي لولا إقامتها لما تيسر لنا أن نلتقي بهذه الوجوه الطيبة، وهذه الجموع من العلماء التي اجتمعت في هذا المكان، وربما لا يتيسر أن تجتمع لغير هذه الدورة في مكان واحد...

المؤلف يتكلم بعد انتهاء توزيع الجوائز في آخر حفل اختتام الدورة التدريبية لأئمة المساجد والدعاة في تومين، سيبيريا

أيها الإخوة العلماء، إنني أتمثل في هذا العمل الطيب المجيد مدلول قوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى... ﴾ الآية.

فهذا التعاون الحاصل بين وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد وبينكم، هو من العمل بقوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى... ﴾ ، ثم إنني أرى لزاماً عليَّ أن نشكر جهود الإخوة العاملين في هذه الدورة بالذات، سواء منهم من كان من وزارة الشؤون الإسلامية وعلى رأسهم الشيخ يوسف الحمودي، والعاملين في مكتب مؤسسة إبراهيم الإبراهيم في موسكو.

أيها الإخوة العلماء، لقد سمعنا من الخطباء حسن ظنهم بإخوانهم على حضور هذه الدورة، أي على حضورنا نحن أنا وزميلي الأستاذ رحمة الله بن عناية الله، ولكنني أعجب من نفسي كيف نستحق الشكر على ذلك ونحن قدمنا بين الحفاوة والعناية من إخواننا في هذه البلاد، والإدارة الدينية، استقبلنا أخونا عبد الواحد نيازوف - جزاه الله خيراً - في مطار موسكو، ثم استقبلنا أيضاً في مدينة خباروفسك في الشرق الأقصى الروسي، ثم صحبنا صاحب الفضيلة أخونا الشيخ نفيع الله عشيروف، وكنا نستقبل بحفاوة إلى أن وصلنا إلى هذا المكان.

إننا إذا ما قارنا بين ذلك، وبين مسير أول بعثة انطلقت من بغداد إلى هذه المنطقة، وكان معها لحسن الحظ الكاتب ابن فضلان الذي سجل سفر البعثة من البلاد العربية إلى هذه المنطقة، وبالذات بلاد البلغار التي عاصمتها مدينة بلغار، وتبعد مائتي كم عن مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان.

نعجب أشد العجب، بل ونحتقر أنفسنا وعملنا، إذْ استغرق سفر البعثة المذكورة إلى مدينة بلغار أحد عشر شهراً ونصفاً.

أيها الإخوة الطلاب، إن من توفيق الله تعالى لنا أن زرنا مناطق في هذه البلاد، بدأت بالشرق الأقصى الروسي، وقد استغرق سفرنا بالطائرة من موسكو إلى المدينة التي وصلنا إليها أولاً، وهي مدينة بتروبافالوفسك ثماني ساعات وربعاً ... ومن هناك سافرنا إلى مدينة خابروفسك أيضاً في الشرق الأقصى، ومنها سافرنا إلى المدينة القريبة منكم وهي مدينة الشيخ عبد الواحد (أومسك) على اسم نهر (أوم).

وقد قابلنا المسؤولون في هذه المناطق مقابلات كريمة، وأبدوا لنا سرورهم بزيارتنا، وأكرمونا إكراماً خاصاً، والمقصود بذلك حكام

الولايات ورجال الإدارة، لأن إخواننا المسلمين يقابلوننا كما يقابل الأخ أخاه، وسمعنا منهم العبارات المشجعة، منها ما ذكره لنا حاكم ولاية أومسك قال: إن الشعب عندنا قد عانى في عصور طويلة من الدعاية الإلحادية التي حرمته السعادة الروحية، ولذلك بطبيعة الحال نحن نقدر وأنتم تقدرون أن آثار أربع وسبعين سنة من الحكم الملحد، والدعاية الإلحادية لا تمحى بسرعة.

أيها الإخوة في الله من الأئمة والدعاة:

علينا أن ندعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن ننظر إلى مرحلية الدعوة في هذه البلاد.

أيها الإخوة: إن الأقلية ينظر إليها في العادة أكثر مما ينظر إلى الأكثرية، هذه طبيعة الأشياء، فيجب أن تفهموا من تستطيعون أن توصلوا أصواتكم إليه من الإخوة المسلمين الذين هم أقلية عددية، وقلة العدد لا تضر إذا رافقها عمل صالح... أن تفهموهم أنه يجب عليهم أن يلتزموا بالأخلاق الإسلامية، من حسن المعاملة، ومن كف الذي عن الناس، ومن رعاية حق الجار، ومن أداء الأمانات، ومن عدم الغش في البيع والشراء، وفي الأخذ والعطاء، لقد قال رسول الله ﷺ: (من غشنا فليس منا)، وهذا حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه، وفي رواية لمسلم: (من غش فليس منا)، ونحن نفهم من الرواية هذه أنها عامة للمسلمين ولغير المسلمين: (من غش فليس منا)، أي أنه لا يجوز للمسلم أن يغش أحداً من غير المسلمين، كما لا يجوز له أن يغش أحداً من المسلمين.

إن تطبيق الدين الإسلامي في المعاملات وفي الحياة المدنية العادية أكثر أثراً في نفوس الناس من غير المسلمين من تأدية العبادات، لماذا ؟ لأن المعاملات تتصل بهم مباشرة، أما العبادات فإنهم يرون فيها - أي غير

المسلمين - مجرد عبادات بين المسلم وبين ربه.

وقد ذكرت الماضي الإسلامي المجيد لهذه البلاد، وأن أول اتصال بها كان في زمن قديم مضت عليه أكثر من ألف ومائة سنة وطلبت من أئمة المساجد والدعاة أن يحرصوا على إعادة الإخوة المسلمين الذين هم الآن مسلمون بالهوية بسبب الضغوط الإلحادية القديمة إلى العمل بالإسلام وتطبيقه في حياتهم بقدر الاستطاعة.

وأهم ذلك العناية بتربية الأولاد تربية إسلامية.

وقلت مخاطباً الأئمة والدعاة: إن عليكم مسؤولية هذا الأمر بقدر ما أعطاكم الله تعالى من العلم والمعرفة.

ولا شك في أن إخوانكم في المملكة العربية السعودية الذين رأيتم كيف كان تعاونهم معكم على البر والتقوى لن يدخروا وسعاً في المستقبل في تقديم العون الثقافي والمزيد من التعاون على الخير.

ثم حرصتهم على أن يكون المسلم هنا متميزاً بالأمور الحميدة.

وقلت لهم: إن هذا من تطبيق الإسلام، وأثر تطبيق الإسلام على أحوال المسلمين في الدعوة إلى الإسلام، لأن الناس يتأثرون بطبعهم بالعمل أكثر مما يتأثرون بالقول.

وضربت لهم مثلاً على ذلك بقصة الفتى الفرنسي الذي أسلم وكانت له أم متعصبة لدينها المسيحي، ولذلك لم يخبرها بأنه قد أسلم محافظة على شعورها، وهي امرأة مسنة، إلا أنه صار يعاملها بما أمر الله به المسلم يعامل به والديه، فصار يزورها ويبرها، ويقدم لها المال والطعام، مما جعلها تستنكر ذلك منه، وتسأله عن سبب تغيره، فقال لها: إنني لم أتغير يا أمي.

وفي ذات يوم قالت له: اسمع يا ولدي، أنا أمك وأعرفك منذ أن كنت

صغيراً، كنت مثل إخوتك لا تهتم بي ولا تلبي لي طلباً، ولا تحضر لي طعاماً أو ثياباً، بل لا تبالي بي، والآن أصبحت غير ذلك، وتغيرت معاملتك إلى الأحسن، فلم يسعني إلا بأن أخبرها بأنني قد أسلمت، وأن ديني الإسلامي يأمرني ببر الوالدين، لذلك صرت أبرك.

قال: ففكرت أمي ملياً، ثم قالت: والله يا بني إنّ الدين الذي غيرك إلى هذه الحال الحسنة، بعد أن كنت مثل إخوتك لا تلتفت إليّ ولا تبالي، لهو الدين الحق.

فاذهب بي إلى الجمعية الإسلامية حتى أعلن دخولي في الإسلام !.

توزيع الشهادات والجوائز:

المؤلف يسلم خريجي دورة تدريب الأئمة في تومين هدايا من الكتب

وانتهى الحفل الخطابي، وحان موعد تسليم الشهادات والجوائز، وتوزيع الكتب والهدايا على المشتركين في الدورة، وقد أصر الإخوة وبخاصة الأخ يوسف الحمودي على أن أسلم أنا بنفسي الشهادات للمتخرجين من الدورة، فرفضت ذلك وقلت: إنكم أولى به، لأنكم قد

عاصرتم الدورة منذ بدئها، بل منذ التخطيط لها.

ولكنه أصر على أن أسلم الكتب المهداة لكل واحد منهم، وهي كتب قديمة، ففعلت، وأصر ممثل مؤسسة الإبراهيم الخيرية، على أن أسلم الدروع لمستحقيها نيابة عن المؤسسة، وقد فعلت.

وقد أشركوا الشيخ (نفيع الله) في تسليم بعض الكتب والهدايا.

وأعلنت لهم ما ليس بمتوقع منهم، وهو أننا سنصرف لهم حالاً (ألف روبل) لكل مشترك في الدورة، مساعدة من رابطة العالم الإسلامي على نفقات عودته إلى مقر عمله، وقد كبروا لذلك، وشكروه، مع العلم أن الروبلات لا تساوي إلا (٤٦) دولاراً أمريكية، وهي قليلة بالنسبة إلينا، ولكنها كثيرة عندهم، لأنها تساوي راتب شهر لثلاثة موظفين متوسطي المرتبة.

وقد دفعناها إليهم فوراً بالروبلات.

وبعد انتهاء الاحتفال في ختام الدورة ذهبنا إلى قاعات الغداء وتناول الفاكهة، حيث وجدنا الموائد التي تعد بالعشرات في عدة أماكن من قاعة الفندق الذي فيه الاحتفال، وعليها ما لذ وطاب، وكل ذلك مما خصصته وزارة الشؤون الإسلامية ومؤسسة آل إبراهيم الخيرية للدورة، وكانت فرصة للتعارف، لأن بعض الحاضرين لما سمع تقديم القوم لي واستمع إلى كلمتي أراد التعارف.

إلى
نهاية العالم
أو
مشارف القطب الشمالي

لم يكن مصطلح (نهاية العالم) معروفاً لي من قبل، وإنما سمعت به عندما اعتزمت السفر إلى مدينة (نويفي أرنغوي) التي تقع على مشارف القطب الشمالي، ثم بعد أن وصلت إلى تلك المدينة التي فيها أقرب مسجد في تلك الجهة إلى القطب، وهو في الوقت ذاته أبعد المساجد عنا مطلقاً جهة الشمال بطبيعة الحال.

لم يكن المراد من سفرنا إلى تلك المدينة هو لمجرد الاطلاع على طقسها الغريب العجيب الذين ذكر الأخوة أن درجة البرودة فيه تتدنى في الشتاء إلى (٦١) درجة مئوية تحت الصفر. فقد كنت سافرت قبل سنوات إلى مدينة مورمانسك التي تقع داخل الدائرة القطبية الشمالية، ولا تغيب عنها الشمس مطلقاً، عندما وصلتها في اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو.

وكنت سألت الإخوة المسلمين من أهل موسكو التي انطلقنا منها آنذاك في رحلة قريبة إلى مورمانسك عن الجو فيها، فأجابوا أنه ليس بارداً، وأن درجة الحرارة تكون فيه في العادة ما بين ٩ إلى ١٠ درجات مئوية، لأن ذلك الوقت أشد أيام السنة حراً.

وإن شئت قلت: إنه أكثرها دفئاً، وإن كان دفئاً نسبياً، فلما وصلت إليها وجدت أن البرد فيها قاسٍ، بل شديد القسوة، فقد أعلن مكبر الطائرة عندما وصلناها في الثالثة من بعد الظهر أن درجة الحرارة فيها هي ثلاث درجات مئوية فوق الصفر !.

ولن أكرر ما حصل لي هناك، فقد شرحته في كتاب « الرحلة الروسية » المطبوع.

غير أنني أقول هنا: إنني قلت للإخوة المسلمين في مدينة تومين - وهي مدينة سيبيرية شمالية، وإن كانت المدينة التي سوف نذهب إليها الآن بعيدة

عنها جهة الشمال -: كيف حال الجو هناك؟ فأجابوا: إنه مثل الجو في تومين، وأنه لا برد فيها.

ولكن مسالة الجو وبزودته كانت تكررت بالنسبة إلينا قبل أيام، وكنا نتأهب للسفر إلى مدينة (بتروبافالوفسكا) عاصمة منطقة (كامشتكا)، وهي شمالية شرقية بعيدة، حيث وجدنا درجة الحرارة فيها عندما وصلنا إلى مطارها ضحىً هي ست درجات مئوية، ووجدنا أن ملابسنا التي كنا نرتديها في موسكو، وكنا نشعر أنها أثقلتنا فيها، لم تُجدِ نفعاً في دفع البرد عنا، وقد ذكرت ذلك في كتاب: « الشرق الأقصى الروسي ».

وقد عزمت على أن ألبس أثقل ما لديّ من (بدلة) صوفية، وأن أظاهر بين جوربين ثقيلين من الصوف في رجليّ، وفوق ذلك أستعد استعداداً نفسياً بأن أطلب من الإخوة المسلمين الذين يقضون الشتاء كله هناك أن يعيروني شيئاً من ملابسهم الشتوية مدة وجودنا في المنطقة.

غير أننا وجدنا أن الأمر ليس كذلك كما سيأتي.

ونظراً لغرابة المنطقة، وقلة المعلومات عنها عند قومنا العرب، فقد حرصت على أن أسجل ما أراه فيها، أو ما أستنتجه مما أراه، ولو كان ذلك من باب ذكر التفصيلات التي لا يضر حذفها، فأرجو المعذرة من القارئ الكريم إذا وجد شيئاً من ذلك الذي ربما كان راجعاً - أيضاً - إلى طبيعة الفضول، والميل إلى كثرة التبسط في كلامي، وهي خصلة جبل عليها المؤلف (كاتب هذه السطور)، و(لكل امرئ من دهره ما تعود) كما قال أبو الطيب المتنبي.

يوم الإثنين ١٣/٤/١٤٢٠هـ /٧/١٩٩٩م.

من تومين إلى أرنغوي:

غادرنا فندقنا في مدينة تومين قاصدين المطار في الساعة السابعة والنصف، فسرنا مع خط مزدوج جيد، وما لبث هذا الخط الإسفلتي القريب من المدينة أن أحاطت به أشجار الغابات التي كأنما هي تتنافس مع الأشجار الأخرى المغروسة في الشوارع على إظهار الأوراق والغصون النضرة، أو كأنما هي تعرف بالفطرة التي فطرها الله عليها أن عمر ازدهارها قصير سيعقبه زمهرير، لن يسمح بأن يوجد منها شيء نضير.

ومع ذلك رأينا في هذا الصباح المبكر مدخنة لأحد المصانع تنفث الدخان فيجعله ندى الصباح والرطوبة الموجودة أصلاً في الهواء ينعقد، ولا يتبدد بسرعة، وهو يسهم في تلويث الهواء في المدينة بلا كلل أو ملل.

والأرض كلها معشبة مطربة حتى إن جوانب الطرق التي ليست فيها أرصفة قد نبتت فيها أرصفة خضراء من الأعشاب، والحشائش الناعمة.

وكانت السيارات قليلة جداً في الطريق في هذا الصباح، حتى إنني لم أرَ فيه إلا سيارتين أو ثلاثاً.

وصلنا المطار الذي لم نره في وصولنا إلى المدينة، لكوننا قدمنا إليها من مدينة (أومسك) بالقطار، وليس بالطائرة، فكان مما استرعى انتباهي فيه صف من الطائرات كأنها في استعراض، وأغلبها لا يعمل، وإنما هي من بقايا الطائرات الكثيرة، بل المفرطة في الكثرة، التي كانت تملكها شركة (أيرفلوت) السوفيتية في السابق، وما تزال هي شركة الطيران الروسي.

وكانت مصانع الطائرات في العهد الشيوعي تصنع الأعداد الكبيرة

منها بغير قصد الربح، وإنما من أجل تسهيل الانتقال بين أنحاء الاتحاد السوفيتي المترامية الأطراف.

وبعد أن انفرط عقد الاتحاد السوفيتي، وسقطت معه الشيوعية، بقيت تلك الطائرات لا يستعمل إلا بعضها، لا سيما مع توقف بعض المصانع، وصعوبة تعويض ما يتلف من أجزائها.

وصلنا المطار، فرأيت عند مدخله من الخارج صفاً من الناس من أعمار مختلفة في مشراقه، وهو الذي تشرق عليه الشمس عندنا في الشتاء، كان الناس من بني قومنا في أوقات سابقة لم تكن فيه وسائل التدفئة الحديثة موجودة، ولا كانت الملابس كافية، يجلسون فيه يتلقون الدفء من أشعة الشمس، إلا أن الفرق الآن هو في الوقت، فهو عندنا أشد أيام الحر في السنة، وعندهم الشمس حارة في النهار، ولكنهم يغتنمون فرصة شروقها، وعدم حرارتها الشديدة، ليخزنوا في أجسامهم ما تحتاجه من أشعة الشمس التي يفتقدونها في الشتاء.

وباب الدخول إلى أبنية المطار مثل أكثر الأبنية في هذه المنطقة، بل في كل أنحاء روسيا، مؤلف من بابين، أحدهما يفتح مخالفاً للباب الآخر، بمعنى أنهم يجعلون بين البابين مساحة تقارب مترين، يفتح الباب الأول من أيمنها، والباب الثاني الداخلي من أيسرها، فلا يتقابل البابان، وذلك من أجل ألا يدخل الهواء البارد مباشرة إلى الداخل، ولا يتبدد الهواء الدافئ من الداخل، وهو إلى ذلك يهيئ الجسم الداخل من البرد في الخارج، والعكس بالعكس.

دخلنا إلى قاعة الترحيل في المطار، فأعجبني منها أن فيها زوايا يجلس فيها الناس على مقاعد دائرة في الزاوية، بمعنى أنك إذا دخلت إليها لا ترى فيها مقاعد ولا أماكن للجلوس، ولكن إذا سرت قليلاً وجدت على

يمينك متسعاً صغيراً داخلاً عن حائط القاعة، فيه المقاعد دائرة به من جهات ثلاث.

وبعده ستجد آخر وآخر، وهذا ما لم أرَ له مثيلاً في مكان آخر من قاعات الترحيل في العالم.

ووجدناها مليئة بالناس، لأن مكاتب الترحيل لم تبدأ بعد، فدخلنا مقصفاً فيها جيداً، إلا أن أكثر ما فيه هو الخمر وما اشتق منها، أو تفرع عنها، وهذا هو المعروف عن الروس بعامة، وعن الشماليين منهم بأنهم يكثرون من شرب الخمور، حتى أضرت بهم، ونقصت من إنتاج العاملين منهم، مما اضطر الحكومة الشيوعية في وقت من الأوقات إلى أن تحرم الخمر، ثم عندما عدلت عن قرارها ذلك صارت تفرض قيوداً على بيعها، طبقتها بقوة، لأنها كانت في زمن الشيوعية هي وحدها التي تبيع الأشياء، ومنها الخمر حسب النظام الشيوعي المعروف.

ثم خرجنا بعد ذلك إلى الطائرة على حافلة صغيرة، معنا مضيفتان مرافقتان من باب التكريم لكوني أحمل جواز سفر (دبلوماسياً)، ومعنا أمتعتنا في الحافلة الصغيرة، مما جعلني أتذكر المرات العديدة التي ركبنا فيها الطائرات الروسية في الرحلات الداخلية، وكنا نحمل أمتعتنا بأنفسنا إلى الطائرة ونضعها فيها، ثم عند الوصول نحملها أيضاً، لأنه لم يكن يوجد حمالون عندهم في زمن الحكم الشيوعي وما بعده مباشرة.

وفي هذه المرة لم أرَ ذلك في الطائرات النفاثة، ولكن تبين أن الطائرة التي سنسافر معها الآن هي مروحية صغيرة، وأنهم يلزمون الركاب بأن يحملوا أمتعتهم إليها وينزلوها منها، وذلك عن طريق عدم قيام الشركة التي تتبعها الطائرة بذلك.

كانت يرافقنا في هذا الجزء من الرحلة الأخ (فاتح) من الإدارة

الدينية للأقسام الآسيوية في روسيا، وقد اختاره المفتي لنا، لأنه فيما قال يعرف شيئاً من العربية، وقد يفيدنا بالترجمة، كما قال إنه يعرف التتارية التي يعرفها رفيقي في السفر الأستاذ رحمة الله بن عناية الله.

لكن تبين أن معرفته باللغتين محدودة، وأن نفعه لنا محدود، وبخاصة أننا قد أذنا لمرافقنا في أول الرحلة المهندس أحمد يوسف مدير مكتب الرابطة في موسكو بالعودة إلى موسكو، بناء على وعد من الشيخ (نفيع الله عشيروف) بأنه يرافقنا بنفسه في بقية الرحلة، وهو أنفع لنا من غيره، لمعرفته بأحوال البلاد، لكونه من أهل المنطقة، ولكنه ذكر أنه لن يرافقنا اليوم بسبب انشغاله بتصفية أعمال الدورة التدريبية التي كانت وزارة الشؤون الإسلامية في المملكة بالتعاون مع مؤسسة آل إبراهيم الخيرية، قد أقامتاها بالتعاون مع إدارة الشيخ نفيع الله.

ولكن الأخ (فاتح) ساعدنا على نقل العفش من الحافلة إلى الطائرة ثم إنزالها بعد ذلك.

وعند سلم الطائرة الصغيرة، وقفنا فترة كانوا يتراجعون فيها فيما بينهم، ولا ندري ماذا يقصدون، ثم سمحوا لنا بالصعود إلى الطائرة، وهي مروحية ذات محركين (طوربونيين) كما يعبر عن ذلك بالنسبة للمحرك القوي في الطائرة، وتكون أسرع من ذات المحركين المروحيين المعتادين.

وقد ذكرني الركوب في هذه الطائرة بالركوب في طائرة أخرى مماثلة لها من ناحية أخرى بعيدة عن هذه المنطقة من جمهورية روسيا الاتحادية، بل هي مغايرة لها في الموقع، لأنها كانت في جنوب روسيا، والرحلة تلك هي بين مدينة (محج قلعة) عاصمة جمهورية داغستان، التي تقع إلى الغرب من بحر الخزر الذي يعرف الآن ببحر قزوين، وبين مدينة (آق تاو) التي تقع إلى الشرق من البحر المذكور، والرحلة اقتصرت على

الطيران فوق ذلك البحر من الغرب إلى الشرق.

والطرافة ليست في هذا، وإنما في أننا اكتشفنا بعد أن حلقت الطائرة في الجو أن راكبين كانا قد اختبآ في حمام الطائرة أثناء الاستعداد للإقلاع، بالاتفاق مع المضيف أو المضيفة ودون علم أرباب الطائرة.

ركبنا بالطائرة اليوم قبل الركاب على عادة لهم في روسيا قديمة، وهي أن يركب الضيوف الأجانب إلى الطائرة قبل المواطنين، ثم جاءت حافلة كبيرة بسائر الركاب، ولكن الركاب كانوا أقل من مقاعد الطائرة التي هي (٤٠) مقعداً، في كل صف (٤) مقاعد، في وسطها الممر.

وتبين أن مقاعد هذه الطائرة الصغيرة أوسع من مقاعد الطائرة الروسية النفاثة، إلا أنه ليس في ظهورها جيوب تكون فيها جرائد ومطبوعات أو نحو ذلك، كما أنه ليست في ظهورها موائد للطعام جرياً على عادة لهم قديمة في عدم تقديم الطعام في الرحلات التي تقل مدة الطيران فيها عن ثلاث ساعات.

أعلن مكبر الصوت من الطائرة بالروسية وحدها أن الرحلة إلى مدينة (نوفي أرنغوي) التي تقصدها الطائرة سوف تستغرق ثلاث ساعات إلا عشر دقائق.

ولكون الطائرة سوف تذهب شمالاً، وأن المدينة التي تذهب إليها معروف أنها على مشارف القطب الشمالي فإنني لم أر الركاب قد استعدوا لذلك بملابس ثقيلة، أو شيء يدل على أنهم قادمون على مكان بارد، وذلك خلاف ما كان عليه الحال بالنسبة للطائرة التي سافرنا معها من موسكو إلى مورمانسك عام ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، فقد رأيت الركاب معهم الملابس الثقيلة.

أقلعت الطائرة في الساعة التاسعة ضحى، وهي من طراز (إن ٢٤)، و(إن): اختصار أنطونيف، وحالما أقلعت الطائرة اتضحت المنطقة التي لم نرها من الجو من قبل، وإنما رأيناها من الأرض بأنها سهول فيها غابات وحقول، وليس في المنطقة جبال ولا تلال مرتفعة.

وقد استمر منظر الغابات مع استمرار الطائرة جهة الشمال التي هي جهة القطب الشمالي، وكان صوت محركي الطائرة مزعجاً، قد نسينا مثله منذ سنوات طويلة، حينما استبدلنا فيها الطائرات النفاثة التي يعزل صوتها، ولا يصل إلى الركاب داخلها.

وبعد قليل من الطيران فوق الغابات الكثيفة كثرت البحيرات الصغيرة، أو قل: إنها مناقع المياه، وخفت كثافة الغابات.

ومن مساوئ هذه الطائرة الروسية أن ظهرها ليس فيه مائدة للطعام يمكن أن يكتب عليها الراكب، لذلك لا بد من أن يكتب المرء على ركبته، بمعنى أن يجعل الورق فوق ركبته بعد أن ينصبها.

بقايا المياه الجامدة:

وصلت الطائرة إلى منطقة كثرت فيها مناقع المياه في أرض ذات تلال، فكانت المياه أول الأمر تنعكس عليها الشمس، كما ترى من الطائرة إلا أننا بعد فترة من الطيران صرنا نرى بقاياها جامدة، ولم نقل إنها ثلوج، لأن الثلوج هي التي بقيت على حالتها بعد سقوطها من السماء، وأما الجمد وهو الماء الذي كان سائلاً ثم تجمد بسبب البرد، فإنه ليس ثلجاً، إلا إذا كان ذلك من أصله، ولكننا لا ندري حقيقته، غير أنني لاحظت الفرق بين الماء السائل والماء الجامد من انعكاس الشمس عليها، فالمياه ظاهرة واضحة بحيث يرى المرء الشمس أو أشعتها منعكسة، وأما المياه الجامدة فإنها تبدو كالمرآة غير الصقيلة، إذا انعكست فوقها أشعة

الشمس، أو كالصفيحة من الحديد الأبيض اللامع.

وليس في هذه المنطقة أي أثر لقرى أو بلدان.

و قد صار منظر هذه التجمعات المتجمدة من المياه بين التلال موحشاً، إذْ لا أنيس يراه المرء من الطائرة ولا أثر له، وليس ذلك فحسب، وإنما يجعل المرء يشعر بالقشعريرة من البرد.

وقد مضت ساعة كاملة على بدء الطيران، ولم تتحرك المضيفة لخدمة الركاب، وإنما رأيتها في فترة من الفترات تكتب في أوراق، وقد نصبت رجلها وهي معتمدة عليها.

أما الركاب فإنني لم أر أي واحد منهم يقرأ شيئاً، لا من كتاب ولا صحيفة كما يفعل الأوربيون الغربيون، مع العلم بأن الطائرة لم توزع صحفاً ولا نشرات، ولا يوجد في الجيوب التي في ظهور المقاعد أي شيء من ذلك، وإنما كان الركاب ينعسون، وواحد أو اثنان يشربان جعة (بيرة) كانا حملاها معهما.

وهذا الأمر أي حمل الشراب الكحولي في الطائرة هو الذي تغير في الطائرة عما كانت عليه في زمن الشيوعية، إذْ كانت في ذلك الزمن مثل ما هي عليه الآن لا تقدم طعاماً ولا شراباً، إلا نصف كأس من الماء، أو شراب يسمونه عصيراً، وهو أردأ من ذلك، ولكنهم كانوا يمنعون التدخين وشرب الخمر ومشتقاتها من المشروبات الكحولية كالجعة (البيرة)، ويمنعون حملها في الطائرة.

المنظر الغريب:

قلت البحيرات الصغيرة أو تجمعات المياه فيما بين التلال، وكذلك قلت المياه الجامدة، وصارت الأرض موحشة ليس فيها غابات مألوفة، ولا

أي دليل على أي حياة، وبعد قليل عادت البحيرات إلى النظر، والمياه المتجمدة في أعالي التلال، أما في أسافلها فلا يوجد إلا مستنقعات ضيقة، تنعكس عليها أشعة الشمس في بصيص لنورها محبب، لكونها لم تتجمد.

ثم اتسعت المياه الجامدة فوق التلال، إلا أنها لا تكون في أعلاها، وإنما في الأماكن المنخفضة من أعاليها، وصار منظرها وهي جامدة عجباً حقاً، فليس بمنظر الثلوج، ولا المياه المعتادة، وإنما ذكرني بما كنت أعرفه قبل خمسين سنة أو تزيد، وهو منظر القصدير الأبيض الذي كان الحدادون يذيبونه من أجل أن يشكلوه بالشكل الذي يريدون.

والتلال التي فيها هذه المياه الجامدة هي تلال موحشة، لا أثر فيها لحقول، ولا أية عمارة فيها، وربما كانت هذه المياه من بقايا الثلوج الأزلية أو الأبدية، وهي التي توجد في الأماكن المرتفعة على الدوام، فلا تمحى أو تزول أبداً.

ولكن قد يحدث في الصيف أن تصيب المنطقة موجة دفء، ولا نقول موجة حر، فيذوب بعض هذه الثلوج، حتى إذا عاد الجو إلى حالته الطبيعية، عادت إلى حالها من التجمد، ولكن هيئتها تكون هيئة المياه المتجمدة، وليست هيئة الثلوج.

ولاحظت أن التلال قد زاد ارتفاعها عن التي قبلها، ولعل من نتائج ذلك ما ذكرته.

ومن الطريف الغريب أن المضيفة أحضرت لها طعاماً من غرفة القيادة، وصارت تأكل دون أن تعطي الركاب أي طعام، وهذا من غريب الأفعال أن تضيف المضيفة نفسها دون الركاب، ولاحظت في هذه الطائرة أن غرفة القيادة التي فيها الطيارون لها باب يقفل دون الركاب، ولذلك لا

يرى الركاب الطيارين، ولا يرونهم، مع أنها طائرة مروحية صغيرة.

وقد أحصيت المقاعد في الطائرة فوجدتها أربعين مقعداً نصفها خالٍ.

وعجبت من أن يتركوا الركاب طيلة هذه الرحلة التي استمرت ما يقرب من ثلاث ساعات دون أن يقدموا لهم حتى فنجاناً من الشاي.

والركاب كلهم روس، ولاحظت أنه لا يوجد بينهم مسنون ولا شبان صغار، وفسرت ذلك بقسوة الحال في المنطقة التي نذهب إليها، وليس المراد بذلك قسوتها الآن، وإنما ذلك في الشتاء.

وأمعنت الطائرة في طيرانها المتجه إلى الشمال، فوصلت إلى سماء بحيرة متجمدة كلها، ونحن الآن في شهر يوليو، فما بالك بالجو في شهر يناير وفبراير، حتى إنني رأيت بعدها نهراً متجمداً كله.

ثم انقطعت المياه الجامدة ومنظر الثلوج، والظاهر أن ذلك لكوننا وصلنا إلى أرض منخفضة، بالنسبة إلى الأرض التي أعلى منها التي رأيناها من قبل، ورأيت قرية حول بحيرة غير متجمدة، ولكن لم نجد ما نستطيع أن نعرف به تلك القرية.

ولذلك ظهرت الخضرة حول تلال متطامنة.

المنظر العجيب:

اتسعت المياه، وتعددت حتى صارت كالخلجان في الأرض، وتشعبت المياه الأخرى حتى صارت الأرض أشبه بأرض المستنقعات، وقد غاب منظر المياه الجامدة.

وبدا لي أن هذه المياه تحاصر من يكونون في هذه الأرض، مع أنني لم أرَ فيها أحداً، ولا حتى أي أثر لعمارة، وعجبت من الفرق بينها وبين أرض مدينة (تومين) العامرة التي تبدو الآن طبيعية في هذا الفصل الصيفي

الحار.

ولهذا اجتمع في هذه الأرض الروسية البرد القارص، بل المميت في الشتاء، ومحاصرة هذه المياه في الصيف، ومن الغريب أنه رغم كثرة المستنقعات والمياه فإن الغابات الكثيفة قد انقطعت كلياً، وظهرت في الأرض شجيرات متفرقة صغيرة، بينها أعشاب برية خضر.

هذا والجو صحو اليوم لحسن حظي، إلا أنني لاحظت أن الشمس لا تدخل إلى أي جانب من جانبي الطائرة، ونحن متجهون شمالاً، فظهر ذلك دليلاً على أن الشمس الآن في جهة الشمال، وهو دليل اتضح أنه صحيح كما سيأتي.

ووجدتني أهتف في سري وأنا أرى سعة هذه الأرض القطبية فأقول: ما أوسع أرض الله، ثم أتلو قوله تعالى: ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ وأقول: إذا كانت الأرض التي هي مجرد كوكب متوسط الحجم من توابع الشمس بهذه المثابة، كيف بالأجرام السماوية العملاقة؟ بل كيف بالكواكب التي هي شقيقات للأرض كالمشتري الذي تبلغ مساحته ضعف مساحة الأرض (١٣٠) مرة ؟

والمحير أنه لم يقع نظر إنسان على سطحه حتى الآن، سواء بالمناظير المقربة، أو بالمسابير التي أرسلت إليه، لأنه تحجبه غيوم غير الغيوم التي نعرفها، وله ضغط جوي غير ضغط الأرض.

ولا يملك من يقرأ ما ذكره الفلكيون عنه، وهم لا يعرفون الحكمة من خلقه بهذه الضخامة التي تبلغ ضعف حجم الأرض ألفاً وثلاثمائة مرة إلا أن يتلو قوله تعالى: ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾.

أما إذا تجاوز الفكر هذا كله إلى خارج النظام الشمسي الذي يرى

النجوم والمجرات كأنما هي مزدحمة في رقعة السماء، وهي ليست كذلك، وإنما بينها مسافات من الفراغ لا يتخيل العقل البشري اتساعها، وإنما يرجع البصر الذي يريد أن يعرف تفاصيلها خاسئاً وهو حسير، لأنها بين نجوم تبهر أنوارها المبصرات والأجهزة، أو أجرام لا يراها مطلقاً، لأن أنوار النجوم قد حجبتها.

ثم لا بد للعاقل أن يتساءل: وماذا خلف ذلك ؟.

أي ما وراء ما يبصره البصر بوساطة أقوى المناظير من عوالم ومخلوقات للخالق عز وجل !؟.

وعلى ذكر الكواكب فإنني تخيلت أن أهل هذه الأرض القطبية، والذين معهم داخل المؤثرات القطبية الشمالية هم في الشتاء يعيشون كما يعيش سكان المريخ من حيث هبوط درجات الحرارة، وصعوبة العيش، لا من حيث وجود الهواء والثلج، وما في الهواء الأرضي من مقومات الحياة للإنسان، بل وما في أرضه من معادن تتعلق بذلك، لأن درجة البرودة تتدنى في المدينة التي نقصدها الآن وهي (نويفي أرنغوي) إلى درجة (٦٠) تحت الصفر في أيام الشتاء.

ثم قلت في نفسي: ألا يجوز أن يكون المريخ عندما كان عامراً بالمياه العذبة، وكانت ظروف الحياة فيه ملائمة، أو قريباً من أن تكون ملائمة يذكّر بالجنة التي أهبط منها آدم إلى الأرض، وكان في علم الله أن المريخ سوف يفقد مياهه ومحيطاته، وسوف يتحول إلى كوكب غير مهيأ لحياة البشر المديدة عليه مثلما جعل الله الأرض لهم كذلك ! لذلك أهبط منه آدم إلى الأرض، وكنا ذريته الباقين .؟!.

وعلى ذلك يرد سؤال عن أصل البشرية من أي كوكب، لأن هذه الكواكب فيها تراب وصلصال مثلما في الأرض أو شبيهاً به، وتكون النصوص الواردة في الكتب السماوية عن أصل الإنسان، والجنة

التي كان فيها مكاناً غير بعيد في موضعه ولا خصائصه من وجود الماء في قطبيه على هيئة جمد، وهو المياه المتجمدة، ومن وجود الأكسجين بنسبة معينة في هوائه، ومن وجود جاذبية له أقل من جاذبية الأرض، ولكنها كافية لإمساك الأشياء فوقه وبخاصة في أول الخلق، وهذا الرأي لا يسنده دليل شرعي معروف، ولذلك ليس رأياً لي، وإنما هو تساؤل أثاره ما ذكر. والله أعلم.

الأرض الغريبة:

وليس المراد بالأرض هذه التي نتكلم عليها في مقابلتها بالكواكب، وإنما هو سطح الأرض في هذا القسم من العالم المجهول، لأنني رأيت نهراً يجري بدون جمد، لكن نصف مجراه ماء، ونصفه رمل أحمر خالص، كالرمل الموجود عندنا في القصيم، فقلت في نفسي: من أين لهذه البلاد الثالجة المطيرة في الصيف هذا الرمل الأحمر الذي اعتدنا على أن نراه في الصحاري والأراضي الجافة ؟.

ومن الغريب أنه إلى جانب هذا النهر منطقة رملية صغيرة، ولكنها كلها من الرمل الأحمر الخالي من الشجر والنبات، على حين كون الأراضي الأخرى المجاورة لها فيها أعشاب خضر وأشجار صغيرة متفرقة خضر أيضاً، إلا أن كثافة الأعشاب والأشجار هي في الوديان منها دون السهول.

وهنا كنت ألوم نفسي على كراهة أن تكون الطائرة التي ركبتها مروحية صغيرة، لأنني لو كنت في طائرة كبيرة نفاثة لما استطعت أن أرى تفاصيل هذه الأرض العجيبة، التي لم يحدثني عنها محدث، حتى من أهل البلاد القريبة منها مثل (تومين) و(أومسك).

ثم وصلنا إلى منطقة مرتفعة قليلاً فيها بحيرة صافية الماء، إلا من

قطع صغيرة من الثلج أو الجمد في أطرافها.

ولكنني رأيت من الطائرة على البعد مناقع مياه كالأحواض متجمدة.

هذا وليس في الطائرة معلومات عن أي شيء، ولا خريطة، ولم ينبس مكبرها ببنت جهاز، حتى المضيفة لم تمر بالركاب ولا مرة واحدة إلا المرة التي أحضرت فيها الطعام لنفسها.

الخط الوحيد:

مضت ساعتان على بدء الطيران، ولم أرَ معالم حياة تحت الطائرة إلا خطاً للأنابيب يبدو وحيداً، وحوله خط إسفلتي لم أرَ فوقه سالكاً، وقد تبادر إلى ذهني أنه ربما كان خط سيبيريا الدولي للغاز الذي ينقل الغاز منها إلى أوروبا، فضلاً عن أجزاء من البلاد الروسية الواسعة.

وكنا سمعنا منذ سنوات، وفي زمن الخصومة بين الاتحاد السوفييتي وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وكان يرأسها (رونالد ريغان) أن الدول الأوروبية أسهمت في دفع نفقات أنبوب ضخم ينقل الغاز من سيبيريا إلى أوروبا، وأن الولايات المتحدة عارضت في ذلك على اعتبار أنه يقوي الاتحاد السوفييتي التي كانت تسعى إلى إضعافه في ذلك الوقت.

ومع امتداد هذا الخط رأيت فيه أشياء، أو منشآت صغيرة فسرتها بأنها المحطات التي تكون بجانب الخطوط الطويلة من أجل الضخ أو المراقبة.

وما زالت الطائرة تمعن في سيرها شمالاً تجاه منطقة القطب الشمالي، وقد تغير الآن منظر الأرض تحتنا، فصار يشبه الأرض الصحراوية من حيث عدم وجود الغابات، وعدم وجود الخضرة الشاملة،

لولا وجود هذه المياه التي تبدو على هيئة مستنقعات ضيقة.

وبقي على موعد الوصول (٤٠) دقيقة، فبدأ غيم خفيف في التسلل بيننا وبين الأرض، فدعوت الله تعالى أن يجلوه عنا حتى نستمتع برؤية بقية المساحة من هذه الأرض الغريبة.

وقبل عشرين دقيقة من موعد الوصول بدأت الطائرة التدني قليلاً، وأعلنوا أن درجة الحرارة في مدينة (نويفي أرنغوي) التي نقصدها هي ١٩ درجة مئوية.

وهذا أمر مفرح، وزال ما كنا خشيناه من البرد فيها.

وسألت مرافقنا واسمه (فاتح) وهو مغلِق - بكسر اللام - عن هذه البقع الحمر التي نراها أهي رمل، ففتح فاه وهو ينظر إليها ثم قال: لا أدري.

وبعد أن تدنت الطائرة قليلاً اتضح لي بما لا يدع مجالاً للشك أنها رمال حمر، لأننا رأينا من الطائرة نهراً فيه ماء قد غمر نصف مجراه، والنصف الآخر فيه رمل أحمر يميل إلى اللون الذهبي، وهو المائل إلى الحمرة قليلاً.

وقد صار هذا النهر ذو الرمل الذهبي يماشينا، أو لنقل يطايرنا، لأننا نطير وإن لم يكن هو يطير، إلا أن مجراه كان متعرجاً، ثم فارقنا قبل الوصول إلى المدينة، بمعنى أنني لم أعد أراه من مقعدي في الطائرة.

ورأيت مكاناً معموراً، تبين فيما بعد أنه تابع لاستخراج الغاز من المنطقة.

ورأيت بعض الطرق الترابية، أو هي تبدو كذلك، وتعجب من كثرتها تتخلل المستنقعات والأراضي الرطبة.

ثم وصلنا إلى منطقة فيها سحاب كثيف ذو طبقات كانت العليا منها سريعة بسرعة لافتة للنظر، ولا ادري السر في ذلك.

ومن خلال فرج بين السحاب رأينا النهر الرملي الأحمر تحتنا وحوله إلى امتداد البصر من الطائرة المتدنية مناقع المياه التي تبدو وكأنما هي لا حصر لها، ولا يوجد في الأرض جمد، ولا ما يدل على ذلك.

وتبين لي عندما تدنت الطائرة من الأرض أن الخضرة التي فيها حول المستنقعات وبينها إنما هي طحالب وأعشاب قصيرة صغيرة.

وقد تقشع السحاب - ولله الحمد - وبدت الأرض غريبة تشبه رقعة الشطرنج، ورقعها هي هذه المستنقعات الصغيرة.

وبدا الأصعب عندما قربنا من المدينة والطائرة تهم بالهبوط في المطار أن الأرض لا يمكن اجتيازها مطلقاً بالسير على الأرض، ولا على الدواب، أو بالقوارب، ولا أي نوع من المركبات، لأنها مستنقعات غير متصل بعضها ببعض، وإنما تختلف المستنقعات سعة وضيقاً، وهي تتخذ أشكالاً غير منتظمة، وبعضها غير عميق إلى درجة أن تراه وحلاً فقط، ولكنهم شقوا - بشق الأنفس حسبما تخيلته - فيها طريقاً إزفلتية عالية.

وأما الشجر فيها فإنه قليل ومتفرق، وهو يبدو صغيراً، وليس في غابات ملتفة.

في مطار نوفي أرنغوي:

هبطت الطائرة في مطار بلدة (نوفي أرنغوي) في الثانية عشرة إلا خمس دقائق ظهراً اصطلاحياً، وقلت: اصطلاحياً، لأن الظهر الذي هو منتصف النهار غير موجود عندهم الآن.

وقد استغرق طيرانها إليها من مدينة تومين ثلاث ساعات إلا خمس

دقائق.

وجدنا المطار ليس مزفتاً، وذلك لكون الزفت يفسده تراكم الثلوج عليه في الشتاء ثم انحسارها في الصيف، ولكنهم صبوا أرضه قطعاً مربعة، أو كالمربعة من الإسمنت التي لا أدري أفيها حديد أم لا.

وشعرت بسعادة غامرة والطائرة تدرج فوق أرض المطار بأنني أصل الآن إلى أقصى الشمال المعمور من الأرض من هذه الجهة، وأصبح ولو لفترة قصيرة من جيران القطب الشمالي.

لم يتحرك الركاب من مقاعدهم في الطائرة بعد وقوفها جرياً على عادة لهم عرفناها منهم، وهي ألا يتحركوا إلا بعد أن ينزل الطيارون من الطائرة.

وهذه عادة باقية لهم من عهد الشيوعية، وذلك أن الطيارين في العهد الشيوعي مثل غيرهم من الناس يتقاضون أجوراً معينة، وليست لهم مقابل المخاطرة بأرواحهم وخدمة الناس في قيادة الطائرات إلا هذا الاحترام المعنوي ونحوه الذي منه ألا يتحرك الركاب من مقاعدهم، إلا بعد أن ينزلوا هم من الطائرة.

وعند نزول الطائرة تجددت المشكلة القديمة، وهي عدم وجود حمالين للحقائب والأمتعة، وكون المسؤولين عن الطائرة لا يرون أن من واجبهم إيصال الأمتعة إلى قاعة الوصول في المطار.

وكان المطر يهطل رذاذاً، ثم توقف إلا أن أرض المطار غمرها قليل من ماء المطر، فأحضروا حافلة كبيرة ركب فيها الركاب، وحملوا أمتعتهم، وفي قاعة الوصول كان ضابط يطلع على جوازات الركاب، مع أن الرحلة داخلية، وحتى المواطنون لا بد لهم من جوازات داخلية يتنقلون بها داخل جمهورية روسيا الاتحادية الواسعة، مثلما كان عليه الحال في زمن

الاتحاد السوفييتي، وكان هذا الضابط جالساً على مكتب خشبي صغير، ولكن بعده ضابط قاسي اللمحات، خشن المعاملة، كأنما يعاقب الناس بفعله، أو هو يحاول ذلك يطلع على الجوازات التي سجلها الضابط الأول.

الحديث التلفازي تحت لسع البعوض:

لم نكد نخرج من المطار حتى بادرتنا فتاة مثقفة معها مصور تلفازي، وتبين أنها كانت في انتظارنا، وأنها كانت تعرف بوصولنا، وقالت: نحن من تلفاز (نوفي أرنغوي)، ونريد أن نجري معك حديثاً، قربت المذيعة التلفازية الجهاز اللاقط (المايكروفون) مني بعد أن سألتني عن الغرض من مجيئنا إلى هذه المدينة، فقلت: إنه زيارتها والاطلاع على المسجد الذي فيها، لأننا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة التي تهتم بالمساجد في أنحاء العالم.

ومن الطريف الذي كدت أن آتي فيه أمراً مخجلاً بدافع الشهامة أن هذه الفتاة وهي شابة رقيقة كانت تمسك بـ (المايكروفون) أمام وجهي وأنا أتكلم، وإذا بي أرى بعوضة وقعت على كفها القريب مني، فحملتني الشهامة على أن أشير إلى البعوضة لأبعدها عن كفها، غير أنني تذكرت أن اللقاء مصور، وأنني إذا فعلت ذلك سوف يعرض في التلفاز مصوراً، فيراه الناس، فتركت البعوضة تفعل ما تشاء في الكف البضة التي كانت في لون الذهب، ورفعت رأسي إلى وجه الفتاة، وكنت انتهيت من الحديث، فرأيت البعوض يغطي وجهها ورقبتها ونحرها البارز، ثم فطنت إلى أنه أقبل على وجهي ورقبتي وأذني يجللهما بما لم أستطع أن أصبر عليه، فجعلت أذوده عني وأنا أتكلم.

وظهر أنها لم تبال بذلك، لأنها قد عرفته من قبل، بل اعتادت عليه.

قالت لي: هل تنوون الاتصال بالمسؤولين في هذه البلاد حول المسجد،

وحول الغرض من مجيئكم لهذه المدينة، فقلت لها: إنه يسرني ذلك، والأمر سوف نبحثه مع الجمعية الإسلامية في المدينة.

ثم تكلمت بعبارات مجاملة، وانتهت المحادثة التلفازية.

ومن الطريف في هذه المقابلة غير ما ذكر أن مرافقنا الأخ الفاتح (المُغْلِق) عجز عن الترجمة، وتلعثم، وذلك لضعفه في العربية، أو لشيء آخر، فأخذ المكبر منه ذلك الفتى الشهم الذي سيأتي الكلام عليه، وهو (محمد شمسي)، وصار يترجم ترجمة سريعة جيدة من العربية إلى الروسية وبالعكس.

والشيء الآخر: أننا لم نستطع الصبر على البعوض، فأسرعنا نعود إلى مبنى المطار، لأننا لم نحس بالبعوض في داخله.

كان في استقبالنا في المطار عدد من الإخوة المسلمين من أعضاء الجمعية الإسلامية، منهم الأخ (خوان) رئيس الجمعية الإسلامية، والأخ طاهر بن عبد الكريم من الشيشان، والفتى الذكي، بل النابغة (محمد شمسي)، وهو ابن إمام المسجد، وأصلهم من نمنكان في وادي فرغانة الذي يتبع الآن جمهورية أوزبكستان.. وهو في سن السادسة عشرة، ومع ذلك يعرف عدداً من اللغات، من بينها العربية، وكان يتعلم في مدينة في جنوب روسيا، وجاء إلى هذه البلاد من أجل قضاء الإجازة الصيفية فيها عند أهله. أما والده إمام المسجد فإنه لا يزال في تومين، إذ كان ذهب إليها للاشتراك في دورة تدريب الدعاة وأئمة المساجد التي أقيمت في مدينة تومين، وحضرت حفلة اختتامها أمس.

مدينة نوفي أرنغوي:

معنى اسمها: أرنغوي الجديدة، لأن (نوفي): جديدة بالروسية، وأما أرنغوي فإنها من لغة قوم قليلي العدد بدائيين، كانوا يعيشون في هذه

المنطقة، وقد تبعثروا الآن، ولم يعودوا يحيون حياتهم الأولى على صيد الأسماك من المستنقعات التي تملأ أرض المنطقة، وفي بحيرات، وحتى نهر، غير أن ذلك كله يتجمد بل يتحجر في الشتاء، فتصبح الأرض صالحة للانتقال عليها فوق العربات التي تجرها الكلاب، لأن الكلاب الموجودة في تلك المنطقة، هي كانت الحيوانات التي يمكنها العيش وحدها إلى جانب الدببة - جمع دب - التي تتغذى مثلها على الأسماك.

وقد حاولت أن أرى أي شخص من سلالة أولئك الأقوام فلم أستطع، وكان الإخوة المسلمون قد ذكروا أنهم سوف يجتهدون في ذلك، لأن عهدهم كان قليلاً جداً، ذكروا أنه لا يزيد على مائتي شخص، إذ لم تكن وسائل البقاء على قيد الحياة سهلة هناك في السابق.

لذلك لا توجد لهم مدن ولا قرى، ولا مستوطنات ثابتة، وحتى بالنسبة للحضريين لم تكن لهم مدن إلا عندما اكتشف الغاز بمقادير ضخمة في المنطقة، وكذلك اكتشف فيها البترول، فجاءت الشركات الكبرى لها مستثمرة، واحتاجت إلى عمال أقوياء.

ومن الطريف الذي ذكره الإخوة المسلمون أن أول من سكن في هذه المدينة مدينة (نوي أرنغوي) التي لا يزيد عمرها الآن على (٢٥) سنة هو أخ مسلم من الشيشان الذين عرفوا بالقوة والصبر على المكاره، ولا تزال طائفة منهم في المدينة حتى الآن، ومعلوم أن الشيشان كلهم مسلمون، وأما ذلك الأخ المؤسس، بمعنى أول من سكنها فإنه الآن يعيش في موسكو، وهو - بلا شك - شجاع قوي الإرادة، وإلا لم يصبر على العيش فيها، وبعد أن اكتشف الغاز والنفط فيها سكنها مسلمون كثر. ولذلك استقبلنا عدد منهم من الإخوة المسلمين من قوميات عدة، كلهم يتعاونون تعاوناً مثمراً على شؤون دينهم الإسلامي الحنيف.

ومعنى كلمة (أرنغوي) بلغة أولئك الأقوام هي: (الأرض الميتة)، وذلك لكونها لا يعيش فيها أي شيء مفيد، ولا تخرج أرضها أي شيء يؤكل، وكل شيء فيها من هذا القبيل، إنما ينقل من موسكو أو من البلدان السيبيرية الجنوبية.

وعلى هذا يكون معنى اسم المدينة: (الأرض الميتة الجديدة)، وكلمة الجديدة هنا يراد بها المبعوثة، بمعنى التي بعثت من الموت، أو هي المحياة التي حيت بعد الموت، ويبلغ سكان هذه المدينة (١٥) ألف نسمة.

وسوف يأتي الحديث عن الإسلام والمسلمين فيها في فصل لاحق، عندما نستكمل المعلومات عن ذلك بإذن الله.

بلاد لا تصلح للعرب:

سألت ونحن في الطريق إلى المدينة التي لا يبعد المطار عنها كثيراً عما إذا كان فيها أحد من العرب، فاستنكروا ذلك، وقالوا: درجة البرودة في الشتاء الفائت انحدرت إلى (٦١) درجة مئوية تحت الصفر، ويسأل المرء عن وجود العرب فيها ؟

إن العرب لا يوجدون فيها، لأنه لا أحد منهم يستطيع الصبر على هذه البرودة المتدنية.

وقد صدقوا فيما أخبرونا به من أمرها، ومن ذلك أن أهل سائر سيبيريا المعروفة بثلجها وبردها الذي يكسر العظام يستعيذون بالله من برد (نوفي أرنغوي)، أو الأرض الميتة الجديدة، فكيف بغيرهم ؟.

والشمس لا تغرب في آخر شهر يونيو مطلقاً، وبعد ذلك ي مثل هذه الأوقات الآن تغرب غروباً غير منتظم، بل هو محير لهم، حتى إنها تشرق أحياناً من الشمال، وأحياناً تغرب في الجنوب في بعض الأيام، لذلك لا

يعتمدون عليها فيما يتعلق بأداء العبادات، وإنما يعتمدون على الوقت في مدينة (تومين) التي أقلعنا منها اليوم، وهي تبعد قرابة ثلاث ساعات بالطائرة المروحية السريعة، وتلك مسافة تعادل في ظني (١٣٠٠) كيلومتر جهة الجنوب، وإلا فإني لم أرَ تحديداً لها مكتوباً مضبوطاً.

ومدينة (تومين) فيها شروق وغروب حقيقي للشمس طيلة العام، فلا يحل عليهم وقت لا تغرب فيه الشمس أو لا تشرق فيه.

وقد يستغرب القارئ الكريم اختلاف الحال إلى هذه الدرجة في هذه المسافة غير الطويلة، والجواب بما هو معروف من أن من يكونون مثلهم على أطراف الدائرة القطبية الشمالية التي يسمونها (نهاية العالم)، كما سيأتي نقل كلامهم، يكون الذهاب جهة الشمال عنها مائة كيلومتر يعادل بالنسبة إلى تغير مكان الشمس وموعد شروقها وغروبها أكثر من ألفي كيلو إذا ذهب الإنسان عنها جهة الجنوب، وذلك لكون الشمال هو طرف الأرض الأقل كثافة وعرضاً مما كان جنوباً عنه.

ومع أن هذا ظاهر، فإنه يمكن التمثيل له بما لو افترضنا أننا حصلنا على مقياس الماء الذي يستعمله البناؤون والمبلطون مقياساً لارتفاع السطوح وانخفاضها، وافترضنا أن طوله مائة كيلومتر، ووضعنا وسطه على سطح الأرض في هذه المدينة، ثم ثبتناه لرأينا أن ارتفاعه في الشمال بالنسبة إلى انخفاضه في الجنوب شديد جداً، بل لا وجه للمقارنة بينهما، ولعجبنا أنه سيكون بين طرفه الشمالي وبين سطح الأرض مقداراً هائلاً من الانخفاض، لأن الأرض تنحدر نحو القطب من هنا انحداراً سريعاً.

نهر ياخا:

مررنا في الطريق من المطار إلى المدينة بالنهر الوحيد فيها المسمى (نهر ياخا)، ولا أدري أهو الذي رأيته من الطائرة بعيداً عن المدينة أم هو

غيره، لأن مجراه هنا مثلما هناك مفعم بالرمل الأحمر، كالذي رأيته من الطائرة.

ويسمونه (يواياخا) بمعنى: نهر ياخا، لأن (يوا) معناها النهر.

و(ياخا) هذه لها أهمية أيضاً من كوننا سننزل فندقاً في حي (ياخا) من هذه المدينة.

وحي (ياخا) مجموعة من الأبنية الحديثة المتعددة الطبقات التي تتألف من شقق سكنية غير واسعة.

ولكنها على هيئة صفوف تتشابه حتى في الطلاء، تأتي بعدها بمسافات من الفراغ أبنية أخرى (عمايز) ذات ألوان أخرى.

وكنا مررنا ببيوت تقليدية قديمة كما هو طراز البناء في سيبيريا، بل وفي أكثر الأنحاء النائية الباردة من روسيا، وهي بيوت الخشب المؤلفة من طابق أو طابقين.

ولا شك في أنهم يستوردون خشبها من سيبيريا الغابية، وليست من منطقتهم التي ليس فيها غابات.

كنت ركبت في سيارة الأخ الكريم (طاهر عبد الكريم) من الشيشان، وقد تنافس الإخوة على اركابنا، فكنا نركب مرة مع أحدهم، ومرة أخرى مع الآخر، ولكنهم كانوا في كل الحالات معنا بسياراتهم التي هي أربع كانت تسير معنا.

ووجدت أرض المدينة لا تفترق كثيراً عن المنطقة التي هي مجموعة من المستنقعات والأشجار القصيرة، غير أن موقع المدينة واسع بدون مستنقعات، فإما أن يكونوا دفنوها، أو أنهم اختاروه هكذا من الأصل.

وفوجئنا بأن الفندق الذي أوصلنا إليه الإخوة، وذكروا أنهم حجزوا

لنا فيه، هو فاخر ومن ذوات النجوم الخمس، إلا أنه يتفوق في أبنيته عليها، فهو أفخر منها وأجمل.

حتى إن حيطان مداخله من الزجاج، وجميع باقي حيطانه خارج الغرف من الممرات والدرجات هي من الرخام الغالي المستورد كله من الخارج.

كما فوجئنا حين وجدنا الإخوة حجزوا لنا أجنحة في هذا الفندق الفاخر وكنا دفعنا في موسكو (١٦٥) دولاراً لغرفة، وليس لجناح في الفندق الذي نزلناه فيها في هذه المرة.

ورفضنا أول الأمر ذلك، ولكنهم أخبرونا أنهم حجزوها لنا، وكلموا مدير الشركة التي تملك هذا الفندق، وهي شركة الغاز الكبيرة.

وبهذا عرفنا أنه لم يكن الهدف من بناء الفندق بهذه الفخامة، وبالتكلفة العالية في البناء الكسب، وإنما أن يكون مقراً للعاملين في الشركة وضيوفها.

وقد قدرت أن أجرة مثل هذا الجناح في موسكو لا تقل عن (٣٢٠) دولاراً، وإذا بالإخوة يقولون: إن رئيس شركة الغاز التي تملك الفندق هو أخ مسلم، وأنه رضي بـ(٥٠) دولاراً فقط أجرة الجناح، وهو أجرة رمزية لا تكون إلا لنا وأمثالنا ممن يريدون مجاملتهم.

والمفاجأة الكبرى هو الجو المعتدل في هذا اليوم في المدينة، وكنا نظن أنه يكون بارداً كما كان عليه الحال في مدينة مورمانسك التي قدمنا الحديث في ذكر بردها عندما زرتها في أواخر شهر يونيو عام ١٩٩٠م.

إلى مسجد نوفى أرنغوي:

مسجد نوفي أورنغوي

كنت سألت قبل السفر إلى هذه المدينة عما إذا كانت فيها جمعية إسلامية لها مسجد، وقلت: إنه إذا لم تكن فيها جمعية إسلامية أو ليس لها مسجد يصلون فيه ولو كان مستأجراً، فإنني لن اذهب إلى هناك ضناً بالوقت أن يفوت في ذلك على حساب البلدان التي فيها جمعيات إسلامية ومساجد في سيبيريا.

ولكن الإخوة أكدوا وجود مسجد، بل أحضروا لي إمام المسجد الذي كان حضر إلى مدينة تومين من أجل الاشتراك في دورة تدريب الأئمة فيها.

غادرنا الفندق قاصدين المسجد في الواحدة والنصف ظهراً، وركبت مع أحدهم بسيارته، وركب رفيقي في السفرة الأستاذ رحمة الله بن عناية الله مع سيارة أخرى، وتبعتنا سيارة ثالثة من باب الإكرام، وكنت طلبت أن يكون الفتى محمد شمسي راكباً معي من أجل الترجمة إلى العربية،

بخلاف الأستاذ رحمة الله فإنه يعرف التتارية التي يعرفها بعضهم.

وحالما فارقنا الفندق انقطعت (العمارات) وهي الأبنية العالية، ودخلنا في منطقة من البيوت المنفردة التي بنيت في أرض رملية هي أرض المدينة كلها، فهي رملية تماماً كلها مثلما يكون الرمل عليه في بلادنا، إلا أن المطر الذي كان قد نزل في هذا الصباح لبدها، والبيوت المنفردة هنا التي هي البيوت التقليدية في أكثر أنحاء روسيا، وخصوصاً في سيبيريا، هي التي تبنى من طابق أو طابقين بالخشب، وتسقف بالصفيح أو برقائق الخشب على هيئة سنام حتى تسهل إزالة الثلج الذي يتراكم عليها في الشتاء.

وشوارع هذه المنطقة إلى كونها أي المنطقة ذات البيوت، غير واسعة، فإنها ذات شوارع غير مستقيمة ولا طويلة، وإنما هي قصيرة غير مزفتة، فلم أرَ فيها شارعاً مزفتاً واحداً ما عدا الرئيسي فيها.

ورأينا المسجد على البعد رفيع المنار، ظاهر الشعار، بل أعلى مبنى في هذه المنطقة، حتى إن بجنبه كنيسة ليست لها أبراج ولا قباب كقباب الكنيسة، ولا يمكن لمن يراها وهو لا يعرفها أن يعلم بأنها كنيسة.

وتبادرت إلى ذهني صورة الأراضي الموحشة الخالية من السكان حوله، وبأنه آخر مسجد في جهة الشمال، فلا يوجد إلى الشمال منه مسجد، وإن كان بعض الإخوة ذكر لي أن بعض المسلمين بنوا مسجداً في جهة شمالية أخرى، ولا أدري صحة ذلك، والمراد في شمال سيبيريا.

وتذكرت أن هذا المسجد بني حديثاً، وأنه لم يكن قبل ذلك في هذه المنطقة أي مسجد، لأنه لم يكن فيها سكان من المسلمين ولا من غيرهم.

فحمدت الله تعالى وشكرته، وشعرت في الوقت نفسه أنه يجب علينا أن نبذل كل ما نستطيعه من أجل مساعدة هؤلاء الإخوة في أمور دينهم، ومن أهمها

مساجدهم التي هي المؤسسات الإسلامية الوحيدة عندهم، وإمام المسجد يعتبر المرجع الوحيد لأمور دينهم أو يكاد.

داخل مسجد نوفي أورنغوي، المؤلف على يمينه نائب الإمام، فرئيس الجمعية الإسلامية

وصلنا إلى المسجد، فوقفت أتأمله من الخارج، ولكن البعوض ألحّ عليَّ في الشمس، فدخلت إلى الداخل فكف عني، فعجبت من انعكاس الأمر في هذه البلاد، إذ البعض يكون عندنا في الأماكن المعتمة، ولا يكون في الأماكن الشامسة إلا نادراً، وهنا عكس ذلك. وربما شعرْ بأن الأماكن المكشوفة هي التي لا يستطيع أن يتكاثر فيها بسبب طلوع الشمس الطويل في هذه المنطقة. أما إذا قصر النهار فإنه يموت من شدة البرد.

الصلاة القطبية:

وهي منسوبة إلى هذه المنطقة الواقعة على مشارف الدائرة القطبية، وهي أبرد في الشتاء من بعض الأماكن التي تقع على خط العرض نفسه،

ولكنها بقرب بحار كمدينة مورمانسك. ومدن شمال فنلندا والنرويج، وقد زرت إحداها، وتقع في شمال فنلندا، وذكرت ذلك في كتاب: « التعليق على السفر في أقطار البلطيق »، وهو كتاب لا يزال مخطوطاً.

وقد أخبرونا عندما وصلنا الظهر بأن موعد الصلاة قد حان، فأذنوا لصلاة الظهر في الثانية إلا الربع، وكان الذي أذن هو الفتى (محمد شمسي) نائب الإمام وابنه، لغياب والده، وقد أذن أذاناً فصيحاً بصوت شجي، يحسِّنه ويمد صوته فيه.

ثم صلينا الظهر، وقد أصروا عليَّ أن أؤمهم، فأخبرتهم أننا مسافرون نقصر الصلاة، ونجمع بين الظهر والعصر، وعليهم أن يتموا بعدنا أربع ركعات، وقد حرصت أن أبلغهم بذلك، من أجل أن يعرفوه، وليس من أجل أن نقصر نحن الصلاة، لأن قصر الصلاة للمسافر سنة، وليس شرطاً كما هو معروف.

صليت بهم إماماً فأكملوا بعدنا ركعتين، وصلى معنا منهم عدد لا بأس به، جاؤوا بمناسبة مجيئنا، مع أن الأخ نائب الإمام ذكر أنهم يصلون في المسجد الأوقات كلها، وإن كان وقت الظهر أقل من غيره في عدد المصلين، لانشغال الناس فيه بأعمالهم.

والغداء القطبي:

وحق له أن يفرد بعنوان، مع أن غيره من أنواع الغداء التي هي أكبر منه وأوسع لا تستحق أن تفرد بعنوان، وذلك أنه لا توجد في هذه المنطقة أية أطعمة أو خضرات، ولا تنتج أي نوع من الأطعمة، لا من اللحوم ولا من الحبوب ولا من الفاكهة ولا من الخضرات، ما عدا شيئاً واحداً مهما هو موجود فيها وهو السمك.

وهو غذاء مهم، كان جماعة من البدائيين الذين لا دين لهم يأتون إلى هذه

المنطقة، وقال بعضهم: إنهم كانوا يعيشون فيها متجولين، فهم قبائل رحل، يقال لهم: (خانتي منسي نانتي)، ذكروا أنهم ذابوا بدخولهم في الروس، وأنه لا يكاد يوجد من الأنقياء منهم أحد، حتى ولا شخصاً واحداً، وقد جهدت في أن أرى أحداً منهم، وطلبت من الإخوة أن يسعوا في ذلك، ولكنهم ذهبوا إلى سوق شعبية، ثم عادوا دون أن يظفروا بذلك.

طعام الغداء الذي أقامته الجمعية الإسلامية في مدينة نوفي أورنغوي في غرفة جانب المسجد مع أعضاء الجمعية

وذكروا أنهم لا علاقة لهم بالجنس الروسي، ولا بالعنصر الذي يتألف منه غالبية سكان سيبيريا، وأنهم ذوو شعور سود، وقد أصبحوا الآن روساً، ولم يسلم منهم أحد، لأنه لم يكن في المنطقة مسلم في أول الأمر.

قالوا: وكانوا يعتمدون في طعامهم على السمك الذي يكثر في الأراضي الحافلة بالمستنقعات وبالبحيرات، وكذلك فيها أنهار ومجاري مياه، وحتى إذا تجمدت كلها في الشتاء فإنهم يحفرون في المياه المتجمدة ويصطادون السمك من أسفلها.

كان الغداء في غرفة من غرف ثلاث ملحقة بالمسجد، وكان أهم ما فيه السمك، إذ كان نوعان من السمك الجيد، وفيه قليل من اللحم استوردوه من أماكن بعيدة.

والعجب في أمر السلطة، فقد أحضروا عشبة تشبه الكزبرة كنت أكلتها في بلاد القوقاز، حيث تزرع هناك ويسمونها (الوزيري) - على صيغة النسبة إلى الوزير - وإن لم يعرفوا أي وزير هو، ذكر هؤلاء الإخوة أنها من إقليم (كرسنا دار) في جبال القوقاز، ويبعد عن موسكو جهة الجنوب أكثر من ساعتين بالطائرة النفاثة، أي أبعد من المسافة بين جدة والرياض مرة ونصفاً، ثم نقل من موسكو إلى هنا ثلاث ساعات بالطائرة النفاثة أيضاً، لأن البلاد هذه لا تنتج حتى البطاطس الذي ينمو داخل الأرض كما هو معروف، ويجود في بعض البلدان الباردة مثل شمال أوروبا.

ومع ذلك كان في الغداء سلطة مستوردة فيها خيار وطماطم، أما الطبق الرئيسي فإنه أرز يشبه الأرز البخاري، ومعه قطع من لحم الدجاج كما يكون الأرز البخاري.

وقد أعطوا كل واحد صحنه بيده فيه ما خصصوه له من طعام.

وكرروا قولهم بأن هذه المنطقة ليس فيها حيوان لحم، ولا حيوان من حيوان الصيد، وليس فيها نبات يؤكل منه، وليس فيها قرى، ولذلك ليس لهذه المدينة توابع، ما عدا تجمعات سكنية محدودة للعمال الذين يعملون في استخراج الغاز والنفط.

ومساكن العمال بنتها الشركة التي تستخرج الغاز والنفط، واسمها (قازبروم).

مدير الشركة مسلم:

هذه الشركة المهمة، بل العالمية التي أحيت هذه المنطقة، بعد أن لم تكن فيها حياة، يديرها أخ مسلم من الشيشان اسمه (ريم بن ستار سليما

نوف)، وهو من الشيشان، ولذلك لم نعجب حينما ذكروا أن أجرة الجناح في الفندق الضخم الذي سكنا فيه هي (٥٠) دولاراً، وأن مدير الشركة حدد هذه الأجرة بنفسه.

ثم أحضروا على الغداء فاكهة منوعة، كلها مستورد دون استثناء، فيها العنب والكمثرى والتفاح.

ذكروا أن الكيلو الواحد من العنب يباع هنا بأربعة دولارات أمريكية، أي خمسة عشر ريالاً.

وكررت السؤال عن وجود أي حيوان هنا، فذكروا أن الحكومة قد استوردت عدداً من الأبقار، وجعلتها في مزرعة حكومية، وخصصت حليبها غذاء للأطفال في المدينة، ولكنها أغلقت، وعدم الحليب.

قالوا: وأما الحيوان فإن الدب يوجد، ولكن على قلة، ويساعده على البقاء كثرة الأسماك في المياه والبحيرات، وهو يتغذى على السمك كما هو معروف إلا أنه أيضاً نادر.

قالوا: والجهة التي تقع جنوباً من المدينة على مسافة منها يوجد ذئب وثعلب، ولكنه لا يصل إلى هذه المنطقة ذاتها، لأنها تتألف من مستنقعات يشق السير فيها في الصيف، ويخيم عليها برد قارص، بل قاتل في الشتاء.

وهنا سألتهم مداعباً قائلاً: إذاً ليس لكم جيران في المدينة؟ فقالوا: ليس لنا جيران إلا البرد والظلام، لأن الشمس لا تطلع في الشتاء، وإذا طلعت لوقت قصير لم يكن لها أي تأثير في الجو، حتى إنها تبدو لنا كما

يبدو القمر لفرط بعدها عنا فيما نظن، ونورها يبدو كالقمراء التي هي نور القمر.

فعلقت على ذلك بأن المتحرك هو جرم الأرض، فهو في الصيف مثل هذا الوقت يواجه الشمس، فتسقط أشعتها عليه عمودية أو أفقية قليلاً، فيشعر الإنسان بحرارتها، بخلاف الشتاء حيث يميل محور الأرض الشمالي بعيداً عن مواجهة الشمس، إذ تواجه الأرض الشمس بمحورها الجنوبي، لذلك يكون الجو بارداً جداً في الشمال في الشتاء، على حين كونه حاراً في النصف الجنوبي من الأرض في الوقت نفسه.

مسجد نوفي أرنغوي:

عندما رأيت المسجد ذا مظهر متميز، من ذلك أن له منارة شامخة، جميلة المنظر، قد أنفقوا على بنائها نفقة كبيرة قلت لهم: لقد أحسنتم بشراء هذا المسجد، لأنهم كانوا ذكروا أنهم لم يبنوه، وإنما حصلوا عليه من الحكومة، فذكروا أنهم لم يشتروه، ولم يملكوه، وإنما اتخذوه مسجداً، وغيروا من شكله، وبنوا المنارة بجانبه، من أجل أن يكون له مظهر المسجد، ولكونه مملوكاً للحكومة، وهم واثقون من أنها لن تأخذه منهم، بل إنهم واثقون أنهم إذا أرادوا شراءه منها في أي وقت من الأوقات استطاعوا ذلك بثمن مناسب، ذلك لكون علاقتهم بالمسؤولين في الحكومة والبلدية هي علاقة قوية، وهم محترمون من الجميع، وفيهم موظفون وتجار معروفون.

قالوا: هذا المسجد كان بيتاً كبيراً تملكه الحكومة، فأعطتنا إياه بأجرة مناسبة، وذلك في عام ١٩٩٤م، وهو أول مسجد في هذه المدينة، وليس ذلك فحسب، بل يعتبر أول مسجد في منطقة واسعة، والمسجد الوحيد فيها.

وعندما اشتروه بنوا منارته، وكلفهم ذلك نفقة كثيرة لم يستكثروها، لأنهم أرادوا أن تكون المنارة دليلاً لمن لا يعرف من الطارئين على المدينة بأن المسلمين موجودون فيها، ولتكون رؤيتها قرة لعيونهم أنفسهم وإخوانهم من المسلمين فيها.

وتبلغ مساحة المسجد (٢٠٤) أمتار مربعة.

وقد استأجروه من الحكومة بـ (٣٠) ألف روبل في السنة. وذلك يعادل ألفاً ومائتي دولار أمريكية، وهي أجرة زهيدة بالنسبة إلى مستوى الأجور في هذه المدينة النائية.

وإمامه هو الشيخ حسام الدين بن صلاح الدين من مدينة نمنكان في وادي فرغانة في آسيا الوسطى التي كانت تسمى عند أسلافنا العرب ببلاد ما وراء النهر، وهو إلى ذلك يعنى بالشؤون الإسلامية في المدينة.

وليس للإمام راتب من أحد من خارج البلاد الروسية، بمعنى أنه ليس داعية مبعوثاً من المملكة العربية السعودية أو غيرها، وهم يدفعون له شيئاً يساعده على المعيشة من التبرعات التي يجمعونها من المصلين يوم الجمعة.

وأخبرونا أن المسجد يمتلئ عن آخره بالمصلين يوم الجمعة، وليس ذلك لفرط كثرتهم، وإنما لضيقه. قالوا: ولكن المشكلة الكبيرة، بل العويصة هي في صلاة العيد، حيث يقبل الناس على أداء صلاة العيد في المسجد، ولكنه لا يتسع لهم، والجو شديد البرد.

قالوا: وفي عيد الفطر هذا العام امتلأ المسجد والغرف الملحقة به، وهي مثله مدفأة، وبقي نحو ثلاثين مصلياً لم يجدوا مكاناً يصلون، فأدوا الصلاة وقوفاً خارجه، لأنه لا يمكنهم السجود على الثلج في هذا البرد الشديد، إذ كانت درجة البرودة في ذلك اليوم (٥١) درجة مئوية تحت الصفر، وليس هو بأبرد أيام الشتاء عندهم.

قالوا: لذلك عزمنا على أن نبني مسجداً كبيراً يتسع للمسلمين، لأن الجو ليس كالجو في البلدان التي تتمتع بجو معتاد، أو يستطيع الناس الذين لا يجدون أمكنة في المسجد أن يصلوا خارجه، فطلبنا من الحكومة أن تمنحنا أرضاً كبيرة بالمجان، فوافقت على ذلك، وعينت لنا ثماني قطع من الأراضي الحكومية نختار واحدة منها، ولكن لم تكن لدينا النفقة التي نستطيع بها أن ننجز المخططات اللازمة لبناء المسجد، لأن الحكومة تعطينا مهلة للبناء على الأرض، وتستعيدها بعدها بحكم القانون هنا إذا لم يبدأ البناء عليها.

قالوا: وقد ذهبت خمس من الأراضي، وبقيت ثلاث سوف نريكم إياها، ونشاوركم في الأرض المناسبة منها، لأنكم أعلم منا بما يلزم للمسجد وبخاصة فيما يتعلق بالمستقبل.

فشجعتهم على أخذ الأرض فوراً وعدم التواني في ذلك، حذراً من آفات التأخير، وقلت لهم: إنه يجب عليكم أن تبدؤوا بما تستطيعون الحصول عليه من المال، ولو كان قليلاً لا يكفي إلا لصب الأساس، ثم تكتبوا لنا في رابطة العالم الإسلامي، وسوف نساعدكم إذا بدأتم بمساعدة مالية على ذلك من الرابطة، كما أننا سنطلب من أهل الخير في بلادنا أن يساعدوكم، وقد جربنا أنهم إذا طلبت منهم مساعدة مالية لمسجد بدئ ببنائه، ثم توقف البناء فيه لقلة النفقة، فإنهم يسارعون إلى ذلك، خلاف ما إذا لم يبدأ البناء به بعد.

وسوف تأتي تتمة لهذا الحديث عندما نشاهد الأرض المقترحة لإقامة المسجد بإذن الله.

وحديث عن المدينة:

مدينة (نوفى أرنغوي) هذه حديثة، بل بالغة الحداثة إلى درجة يصعب

تصديقها، وذلك أنها أنشئت بعد أن اكتشف النفط في المنطقة في عام ١٩٦١ ، فجاءت الشركات الروسية واحتاجت إلى عمال أقوياء ذوي صبر وجلد، فكانت منهم طائفة من الإخوة المسلمين، وبخاصة من الشيشان، فكانت الشركات تدفع لهم رواتب أعلى من الرواتب التي كانوا يتسلمونها في بقية الاتحاد السوفييتي، بسبب صعوبة العيش في المنطقة، سواء من حيث برودة الجو، وقسوته في الشتاء، أو من حيث عدم توفر الغذاء ما عدا السمك الذي هو موجود بأنواع عديدة كما سبق.

وكانت المدينة حتى عام ١٩٨٠م مدينة مغلقة عن الأجانب، بمعنى أنه لا يجوز لأي أجنبي أن يدخلها، إلا أنها فتحت في عام ١٩٨٠م للأجانب لتشجيع الشركات الأجنبية على الإسهام في استخراج النفط والغاز الذي تحفل به أرضها، والمساعدة على تسويقه وبيعه في خارج روسيا، وكانت مشكلة الغذاء ليست بالغة الصعوبة بالنسبة للأفراد، لأن الدولة في العهد الشيوعي كانت تتكفل بتوفير الضروري منه بأسعار رخيصة كالخبز ومقادير معينة من الحليب المجفف والزيوت وبعض الحبوب.

أما التدفئة وهي هنا لازمة لبقاء الإنسان على قيد الحياة في الشتاء، فقد اعتادت الحكومة السوفييتية على إنشاء محطات للهواء الحار في البلدان الباردة، وجميع مدن البلاد كانت تعتبر باردة في الشتاء على تفاوت بينها في ذلك، فترسل الهواء الحار وأحياناً معه الماء الحار أيضاً بأنابيب ضخمة مرفوعة عن الأرض يراها المرء في شوارع المدن أينما توجه في البلاد، وذلك بأسعار خاصة رخيصة، لأنها لا تبغي الربح من ذلك، ولكونها الجهة الوحيدة التي تملك المال في البلاد، وهي ملزمة بتلبية حاجات السكان كلها.

ثم اكتشف فيها الغاز، بل قيل إنه اكتشف في هذه المنطقة أكبر حقل للغاز في العالم، عرف بغاز سيبيريا، واحتاجت الحكومة السوفييتية

على عدائها للغرب آنذاك إلى المال والخبرة من الدول الغربية، نظير التعاقد معها على إمدادها بالغاز لسنوات طويلة مثل (٥٠) سنة، وكان ذلك بالفعل، فاشترك عدد من الدول الأوربية في تمويل أنابيب الغاز التي أسموها أنبوب الغاز السيبيري، وعارضت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة رئيسها في ذلك الوقت (رونالد ريغان)، حتى إنها هددت بمقاطعة الشركات في حليفاتها الدول الأوربية إذا ما اشتركت في مد ذلك الأنبوب، على اعتبار أنه يمنح القوة للاتحاد السوفييتي العدو اللدود للويلات المتحدة الأمريكية.

ولكن جهودها لم تفلح في ثني الشركات الغربية مدفوعة برغبة حكوماتها في الحصول على غاز رخيص مضمون، فكانت النتيجة أن خضعت الولايات المتحدة للأمر الواقع، واستمر تمديد الخط السيبيري للغاز.

لقد أسست المدينة بسرعة، لأنه كان كل شيء في زمن الشيوعية بيد الحكومة، ولديها مؤسسات تتولى البناء، فبدؤوا ببناء المدينة بعد عام ١٩٦١ بأشهر، ولم يكونوا يقصدون آنذاك بناء مدينة بهذا الحجم، وإنما يقصدون بناء منطقة سكنية لمن يقومون بالعمل في المرافق العامة التي تحتاجها صناعة النفط والغاز في المنطقة.

هذا مع العلم بأن المدينة لا تزال تعتبر صغيرة، إلا أن المسلمين يؤلفون (٣٠ ٪) من سكانها حسبما قاله لنا إخواننا، وقال الأخ طاهر الشيشاني أحد المسلمين النابهين هنا من الذين استقبلونا في المطار: إن المسلمين يؤلفون (٣٠ ٪) من سكان المدينة على الأقل.

ومن حيث التنوع القومي في المدينة، وهو الذي كان يركز عليه الروس ولا يزالون بدلاً من ذكر التنوع الديني، فإن أكثر السكان من الروس.

أما المسلمون فإنهم ينتمون إلى قوميات عدة، من أكثرهم الشيشان والداغستانيون والتتار والبشكير.

والدليل على كثرة الإخوة الشيشانيين هنا أن الذين استقبلونا في المطار وهم عماد الجمعية الإسلامية كانوا كلهم من الشيشان ما عدا واحداً، وحتى الجمعية الإسلامية في المدينة فإن رئيسها هو الشيخ حسام الدين بن صلاح الدين إمام المسجد ومرشد المسلمين لمكانته الدينية، ونائب رئيس الجمعية الإسلامية الذي يعمل بمثابة الرئيس الإداري هو الأخ العزيز المسلم الغيور العامل بصمت: (خوان محيي الدين) وهو من الشيشان، وهو كذلك رغم كون اسمه (خوان)، وينطقون به بإسكان الخاء في أوله ثم واو مخففة، أي غير مشددة ثم نون.

وقد كرر الإخوة على مسامعنا قولهم: إن أول الساكنين في هذه المدينة هو أخ مسلم من الشيشان، وظني أنهم يريدون بذلك أول من سكنها من غير موظفي الشركة، كالتجار أو نحوهم، مع أنهم لم يقولوا ذلك.

الرمل والجمد والأساس الغريب:

من عادة الحكومات الشيوعية أنها تبني المساكن العامة لسائر الناس على هيئة أبنية متعددة الطوابق (عمارات)، تكون شققاً تؤجرها على الناس وعلى الموظفين المنتسبين للمؤسسة الحكومية التي تبني (العمارة)، لأنه لا يسمح لسائر الناس ببناء منازل لهم منفردة داخل المدينة، مع أن هذه المدينة لها طابع خاص.

وفي هذه المدينة بنت الحكومة مباني عاجلة على هيئة طابق واحد، ثم بنت أبنية متعددة الطوابق المعتادة في غيرها.

والعادة المعروفة أن يطلب المهندسون الأرض القوية في التربة حتى يرسوا قواعد المبنى فوقها، وفي هذه المدينة وجدوا أن أرضها تتألف من

نوعين من التربة لا ثالث لهما، هما الرمل وهو الظاهر للعيان في كل مكان يراه المرء منها، وليس تحته على مسافة غير بعيدة ذكروا أنها متر ونصف إلا الجمد وهو الماء المتجمد من قديم الأدهار، وربما كان عمر تجمده على هيئته تلك يبلغ مئات الألوف من السنين، وهو غير مرئي من السطح، إلا إذا حفر الإنسان الأرض وكشف الرمل الذي يغطيه.

كرر الإخوة أن المهندسين اختبروا صلابته فوجدوها كافية لتحمل المبنى، لأنه واسع متماسك يبدو كالصخر، وهو يشمل منطقة المدينة وما حولها، وذكروا أنهم حفروا فيه ليختبروا كثافته فلم يصلوا له في جوف الأرض على طرف، فأقاموا الأبنية عليه، لأنهم ضمنوا أنه لا يتزحزح، إلا أن الأمر اختلف بعد سنتين في بعض الأبنية دون بعض، إذْ لاحظوا أنه ما أن سكنت تلك الأبنية، ودخلتها التدفئة وأنابيب المياه الحارة التي تسربت إلى الأرض ولم تجد لها منفذاً في الكتل المائية المتجمدة الضخمة، حتى ركدت وصارت مع الزمن تؤثر في قواعد المبنى، حتى لاحظوا ذلك في بعض المباني دون بعض.

هكذا قال لي الإخوة المسلمون، وقالوا: إن المهندسين يدرسون هذه الظاهرة وكيفية مكافحتها، مع أنهم لا يزالون يواصلون إقامة الأبنية التي لا تتألف من طوابق عديدة.

وهكذا اجتمعت السيئات في تربة هذه الأرض الميتة، أو التي كانت ميتة قبل أن يحييها الغاز والنفط. قالوا: وبعد سقوط الشيوعية، وتولي شركات وأفراد بناء المنازل صاروا يصبون قواعدها فوق فراش من الخرسانة القوية المتصل بعضها ببعض، تفادياً لتصدعها أو انزلاقها إذا ذاب بعض الجمد تحتها.

إلى نهاية العالم:

انتهينا من طعام الغداء الهنيء الشهي، لأنه مع إخواننا المسلمين في مكان ناءٍ من شمال الأرض، بل هو أبعد مكان مسكون في تلك الجهة، فقال الإخوة: إلى نهاية العالم.

سألتهم عن ذلك للمزيد من المعلومات عن نهاية العالم، فذكروا أنها مكان فيه نصب قد وضعته الحكومة الروسية يبعد عن مدينة (نوفي أرنغوي) بـ (٦٤) كيلومتراً جهة الشمال.

وكان الإخوة قد سألونا عما إذا كنا نذهب إليه في الليل الاصطلاحي أم في النهار، لأنه يمكن الذهاب إليه الساعة العاشرة ليلاً - اصطلاحياً- على سبيل المثال، لكون الشمس موجودة في تلك الساعة، فذكرني هذا بما قاله لي أهل مدينة (مورمانسك الروسية) التي لم تكن الشمس تغيب مطلقاً عنها عندما زرناها: أتريد أن تكون جولتكم في المدينة في الليل أو النهار؟

إن ذلك كله ممكن لكون الشمس لا تغيب.

وهنا قلت للإخوة: إن من الأفضل أن نذهب إليه الآن حتى نضمن الذهاب إليه قبل سفرنا من المدينة المقرر في ظهر غد.

غادرنا مدينة (نوفي أرنغوي) في الساعة الرابعة ظهراً، ولما مررنا بأحد الأبنية المتعددة الطبقات قال لي أحد الإخوة من أهل المدينة ممازحاً: إن هذا المبنى فيه شقق للبيع، فإذا كنت تريد شراء واحدة منها أمكنك ذلك.

فقلت له - مازحاً أيضاً- : إنها إذاً مشتىً لا تنقص درجة البرودة فيه في الشتاء عن (٦٠) درجة مئوية تحت الصفر.

أبى الأخوة إلا أن يرافقونا بسيارات أربع إلى المكان، فقلت لهم: إنه

تكفينا سيارة واحدة، مع أحد الإخوة الذين يعرفون المنطقة، فقالوا: نحن نرغب في صحبتكم.

وركبت في سيارة الأخ طاهر الشيشاني ومعي المترجم محمد شمسي، فمررنا بنهر (ياخا) الذي كان مجراه رملاً أحمر، لأنه غير مفعم بالمياه، وأما الرمل فإنه صار لا يسترعي الانتباه لكثرته، بحيث تبين أن الأرض هي رملية، ورملها مثل رمل الصحارى لولا أن الأمطار تسقط عليها في الصيف، والثلوج تصيبها، بل تخيم عليها في الشتاء، فتلبد الرمل حتى يبدو كالطين الأحمر على البعد.

الشمس في الشمال:

كان الجو صاحياً والشمس حارة، وقد ولينا وجوهنا شطر الشمال، حيث موقع النصب، ورأيت الشمس أمامنا تماماً في الجهة الشمالية، ونحن الآن في الرابعة بعد الظهر، فسألتهم عن ذلك، فقرروا أنه صحيح، وأن الشمس الآن في جهة الشمال، وزادوا على ذلك بأنها في أواخر شهر يونيو وأكثر شهر يوليو لا ترتفع في السماء، وإنما تبدو كما لو كانت تدور في الأفق.

وقد بقي عندي شك في موقع الشمس الشمالي في آخر النهار، حتى نظرت إليها ونحن في المسجد والقوم يصلون العصر بعد رجوعنا من الرحلة إلى نهاية العالم، فوجدتها خلفنا ونحن نصلي، وكانوا أخبروني أن القبلة عندهم هي إلى أيسر الجنوب.

ولصعوبة تمييز موقع الشمس في هذه البلاد، لكونها تتغير بين فصل وآخر، رأيتهم اليوم أقاموا نصباً في طريق المطار على حدود المدينة بينوا فيه الجهات، وهي الشرق والغرب والجنوب والشمال، وذلك بالإشارة إلى تلك الجهات بأسهم كتبوا عليها الجهة التي تشير إليها.

وأوضحوا أول الأمر بأن المدينة تنقسم إلى قسمين قسم شرقي وقسم غربي.

وقد اتضحت طبيعة الأرض بأنها رملية يغلب اللون الرمادي على ما ظهر منها للشمس.

وعلونا في المدينة جسراً وحيداً على الطريق ظهرت لنا منه بعض المصانع التي ذكروا أنها كلها متعلقة بالنفط والغاز.

وعندما خرجنا من المدينة رأيت الأشجار التي شاهدتها من الطائرة، وهي قصيرة متفرقة، وليست في المنطقة غابات كما في سائر أنحاء سيبيريا، وذلك لكونها أبرد من سيبيريا كما هو معروف، وحتى أوراق الأشجار فإنها قليلة، ولذلك ذكر لي الإخوة أن من يكون في الشتاء بدون تدفئة بالغاز أو المياه الحارة، لا بد له أن يحتطب الحطب، وليس كما عليه الحال في سيبيريا حيث يمكنه أن يأخذ ما شاء من الحطب من الغابات الكثيفة فيها، وحتى الأعشاب هي قصيرة لاطئة بالأرض، أي ليست مرتفعة في أكثرها، إلا في بعض المواضع المنخفضة.

وأعجب من ذلك كله أن كثباناً غير عالية من الرمال، رأيتها حول البحيرات أو المستنقعات الواسعة من المياه، وعندها طحلب أخضر وهو الذي يكون فوق الماء، أو على طرفه عندما يكثر الماء.

وقد عجبت من القدماء الذين ذكروا أنهم كانوا يعيشون هنا كيف يستطيعون الحياة فيها، إلا أنهم على أية حال قلة لا يعتد بها، بخلاف الأسكيمو في المناطق الشمالية الذين هم جماعات معروفة مستقرة في المنطقة، وإن لم يكونوا مستقرين في مكان معين منها.

وفي مثل هذا اليوم الشامس، بل الحار المشمس يرى المرء المنطقة جميلة جداً من طريق السيارات المزفت الذي لا يستطيع المرء أن يسير بقدميه مع غيره،

لكثرة المستنقعات، وذلك لكون الأعشاب البرية قد أزهرت بزهرات بيض وصفر تشبه أعشاب الربيع في بلادنا.

مستنقعات قطبية داخل الدائرة القطبية قرب منشآت شركة البترول. وفي أقصى يسار الصورة أشجار مغروسة وليست طبيعية

ولم لا يكون الأمر كذلك رغم اختلاف الموقع؟ أليست هذه المناطق تعرف بالصحارى السيبيرية، مثلما تعرف بلادنا بالصحراء العربية؟

ومررنا بمصنع لمعالجة الغاز وإعداده للتصدير في هذا الأنبوب الطويل إلى أوربا، وهو الوحيد من معالم المدينة الذي سبب وجود هذه المدينة وما يتبعها من أناسٍ ومبانٍ كما سبق.

وقد ذكروا أن الغاز يستخرج من ثلاث مناطق من سيبيريا، هذه إحداها، وربما تكون أكثرها أهمية.

ورأيت اللهب الأحمر في الشمس المشرقة ينبعث من مداخن الاحتراق مثلما كنا نرى منذ زمن الغاز الزائد يحرق في مناطق النفط في بلادنا، وهي منطقة الظهران.

النهر القصير العمر:

مر طريقنا بجسر على نهر صغير على ضفافه رمل أحمر، وإن لم يكن مرتكماً، وقال الإخوة: هذا نهر قصير العمر، لأن الثلج يذوب في شهر يوليو فيجري النهر، ثم يعود إلى التجمد في شهر سبتمبر فيقف ولا يتحرك، فعمره إذاً نحو شهرين.

ومع ذلك استدركوا فذكروا أن الجو اليوم جيد، وأنه قد يسوء حتى في الصيف فيصبح بارداً أو عاصفاً.

ورأينا أبراج الكهرباء مقبلة على مصانع استخلاص الغاز أو محطات تعبئته وما تفرع منه، وهي أبراج صدئة، فذكروا أنها قادمة من (تومين) لهذه المناطق.

ومررنا بأنبوب من أنابيب الغاز الذاهبة بعيداً من المنطقة. قال بعضهم: إنه يذهب إلى أوروبا، ولم أره كبيراً واسعاً، وربما كانوا يعتمدون سياسة تعدد الأنابيب التي يماشي بعضها بعضاً من دون أن تكون كبيرة أو واسعة، من أجل سهولة إصلاح ما قد يعتريه خراب منها دون أن تتأثر الأنابيب الأخرى.

والسيارات في الطريق قليلة، وأكثرها من السيارات الخشنة الّتي تستعمل للأعمال الثقيلة، كالقلابات والشاحنات الروسية الكبيرة.

ما أرخص السمك:

مررنا ببحيرة من آلاف البحيرات الصغيرة التي تكسو المنطقة، وكنا رأيناها من الطائرة كثيرة في منطقة ممتدة، فذكر الإخوة أن السمك فيها كثير، وذكروا أن الكيلو الواحد من السمك يباع عندهم فيما بين ٢٠روبلاً و ٣٠ روبلاً، أي في حدود الدولار الأمريكي الواحد، لأن الدولار

يصرف عندهم بـ ٢٤ روبلاً ونصف.

ومر الطريق بمحطة غاز كبيرة رأينا عندها أشجاراً مغروسة ليست كأشجار المنطقة، ولكنها منها، وربما كان ذلك لقربها من مصادر الدفء في المحطة، أو لكونهم قد يسقونها ماءً دافئاً في الشتاء لكونها داخل المحطة.

ونحن نسير مع خط إسفلتي جيد، وإن كان واحداً للسيارات المتقابلة، إلا أننا شعرنا بالواقع، وهو أننا محاصرون فوق ظهر هذا الخط الإسفلتي المرفوع عن الأرض، ولا يمكننا أن نسير حتى على أقدامنا خارجين عنه للمستنقعات والأوحال.

ثم مررنا بوادٍ فوقه جسر للطريق، فيه مناقع مياه، إلا أن أرضه رملية نقية، بمعنى أن رملها نقي من الأخلاط، فهو يشبه الرمل في القصيم.

وقد استمر سيرنا مع الطريق، ولم تختلف المناظر أو تتبدل، بل استمرت أرضاً مستوية رملية، ولكنها تركبها مستنقعات وحولها أعشاب وأشجار قصيرة كأشجار الصحراء وإن كانت قليلة، ولكن شكلها يدل على أنها تموت في الشتاء، ثم تنبعث في الصيف.

ويرى المرء بين الفينة والأخرى بحيرات صغيرة رائقة، فالجو ساكن دافئ.

هذه نهاية العالم:

بعد أن سرنا (٦٤) كيلومتراً من مدينة (نوفي أرنغوي) متجهين جهة الشمال وصلنا إلى ما أسموه (نهاية العالم)، وهو نصب كتبت عليه بالروسية العبارة التالية:

« نهاية العالم، بداية الدائرة القطبية، منطقة الشمس التي لا تغيب، ولا

ترتفع في السماء، وإنما تدور في الأفق في كل الاتجاهات ».

مع الرفقة عند نصب نهاية العالم

وقفنا مدهوشين عند هذا المعلم الغريب الذي لو لم يكن فيه إلا ما تثيره عبارة (نهاية العالم) في الذهن من غرابة، لا سيما مع ما يحسه المرء هنا الآن من دفء غامر، وقوة الشمس المشرقة في منطقة معتبرة من الدائرة القطبية، وهي تشبه شمس الربيع، بل شمس آخر فصل الربيع في بلادنا، مما يعتبر نقيضاً في الذهن لصورة الدائرة القطبية التي لا تغيب عنها الشمس في أيام من الصيف، ولا تشرق عليها مطلقاً في أيام من الشتاء، خلاف ما شاهدته في منطقة قطبية أخرى قبل ١٠ سنين حيث البرد الشديد والريح الباردة في أطول أيام السنة، وربما أكثرها دفأً، وهي أواخر شهر يونيو.

ووجدتني أندفع في حركة صبيانية داخل الدائرة القطبية، أي بعد

ذلك النصب الذي ذكروه حداً لها، وأقاموه من أجل ذلك، لأرى ما إذا كانت الأرض اختلفت فوراً من داخل الدائرة القطبية عنها في خارجها، فلم أر فيها أي فرق !.

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى كوني لم أتوغل فيها، وإلا فإن أية مسافة في هذه المنطقة، ولو كانت قصيرة، يظهر فيها الفرق واضحاً بينها وبين ما كان إلى الجنوب من الدائرة، كما ضربنا مثلاً لذلك بأن من يكون على حدود الدائرة القطبية إذا سار مائة كيلومتر جهة الشمال التي تذهب في الاتجاه إلى القطب الشمالي، فإنها يحدث فيها من الآثار لسيره ذلك أكثر ما يحدث له فيما إذا سار ألفي كيلو متر من الجهة المعاكسة التي هي جهة الجنوب، وذلك للطبيعة الانحدارية، وإن لم تكن محسوسة للشخص إذا كان يسير على الأرض بالنسبة إلى صغر حجمه بالنسبة إلى الأرض.

ولكنها كبيرة بالنسبة إلى ذهابه إلى جهة القطب، حيث يكون عرض الأرض قليلاً قبله، لأن غلظ الكرة الأرضية هو في وسطها حيث خط الاستواء، وكلما سار أكثر مبتعداً عنه جنوباً أو شمالاً قل عرض الأرض، وإن شئت الدقة قلت: قلّ سمك الأرض، لأن الأرض ليست كرة كاملة التدوير، وإنما هي على شكل بيضاوي مفلطح نوعاً ما.

بعوض سيبيريا وذباب استراليا:

وقفنا عند هذا النصب الذي أقيم في أول حد الدائرة القطبية نتأمله، وكنت أحمل مصوِّرتي بيد وقلمي وقرطاسي بيد أخرى، لأكتب فيه نص ما أريد نقل نصه، كالكتابة على النصب وهي بالروسية وحدها ليست معها لغة أخرى، ولكن الإخوة وهم عدد يصعب تصور إجماعهم على خطأ، صاروا يترجمونه لي، مع أنه ليس طويلاً، ولكنني استعدت ترجمته

منهم أكثر من مرة لغرابتها.

وكنت مستغرق التفكير، وإذا بالبعوض الذي كان هاجمنا جميعاً وصبرنا له أول الأمر تزداد أعداده حتى تتجاوز الآلاف من دون شك، وهو يقع على أي مكان من جسم المرء أول الأمر، ثم يهاجم ما بدا من جلده أو جسمه، فيدخل الآذان، ونحن عراة الرؤوس، ويلج بسرعة وبكثرة في الأنوف، وأما الفم فإنه المفضل لديه، ولا أدري لم بقصده بذلك، والماء كثير نمير في الأرض، يستطيع أن يشرب منه.

أقول هذا لأنني كنت قبل أشهر في القارة الأسترالية، وكان الفصل هو فصل الصيف، وهو فصل الشتاء عندنا، والصيف عندهم حار، فكانت أسراب الذباب التي تبلغ الآلاف تهاجم الإنسان، وتقع على أي شيء تراه من جسمه، وكانت لعبتها المفضلة أن تدخل بين الشفاه، فقال لي الإخوة المسلمون أهل أستراليا: إنها تريد أن تشرب من ريق الإنسان.

والذباب في أستراليا كثير موجود في ذلك الفصل في البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها، وقد تجولت فيها فوجدته كذلك، وذكر بعض الأخوة أن كثرته ربما كانت ناشئة عن تربية الماشية من الأغنام والأبقار في أستراليا التي كثرت حتى عمت أنحاء البلاد، ولكنني قلت لهم: إنني رأيته كثيراً يهاجم الإنسان هجوماً شرساً في أماكن بعيدة عن الأماكن التي يربى فيها الحيوان.

ولم أر في حياتي حشرات تهاجم الإنسان أكثر أعداداً وأعظم شراسة، وأقل تهيباً من ذباب أستراليا، حتى رأيت بعوض سيبيريا، وعلى الأدق بعوض الدائرة القطبية في شمال سيبيريا اليوم، سواء في داخل المدينة أو خارجها، ولكنه خارجها حيث الخلاء والأشجار الصغيرة المورقة والمستنقعات الكثيرة.

لقد صار يهاجم كل شيء، حتى إنه كان يحول دون يدي ودون الكتابة، فيقع على طرف إصبعي، وأنا أحاول الكتابة فينفضخ عند أدنى ملامسة، ويسيل دمه على الورق.

وصار يهاجم شعر الرأس، ويدخل بين الشعر يتخللها ليصل إلى فروة الرأس التي فيها الدم.

ومن المؤلم أنه كان يقع على أماكن كان بعوض مدينة (توبولسك) قد قرصني منها، ولكنه قليل كما يكون البعوض في كثير من البلدان، بخلاف بعوض الدائرة القطبية هذا، فإنه يهاجم وكأنه بعوض مسعور.

وهو بعوض كبير لم يذكره أحد من بني قومنا، والغريب أن الإخوة في سيبيريا الذي عرفوا قصدنا في الذهاب إلى هناك لم يذكروه، فإما أن يكونوا لم يعرفوه، لكونه لا يوجد إلا في مدة الدفء القصيرة فيها، وإما أن يكونوا لم يذكروه استهانة به، ولا أعتقد ذلك، لأنهم ذكروا بعد ذلك أشياء مما يتناقله الناس عنه فظيعة.

أما أبي وجدي وسائر قومنا الأموات، فإنهم لم يسمعوا بهذا المكان، ولو سمعوا به لما صدقوا بذلك، فضلاً عن أن يكونوا تصوروه، بل ربما قالوا ما قاله أحدهم إبان الحرب العالمية الأولى، عندما صار بعض الناس يذكر لندن وباريس وبرلين قال: الناس يقولون: لندن وبرلين وباريس بلدان، ونحن لم نرها، ولا رأينا من رآها، ولذلك لا يمكننا أن نصدق بوجودها، وعلى من يقول ذلك أن يثبته لنا.

البعوض لا ينقل الأمراض:

هذا البعوض كبير الحجم، شرس الطبع، يرمي بنفسه على كل شيء من ابن آدم، ولو كان لا يظهر من جسمه شيء، فقد رأيته يجلل ثياب المرافقين، وكأنما هو جراد الصحراء يقع على الأشجار الخضراء، وقلت

لهم وقد عجزت عن طرده لأنه ليس واحدة ولا عشراً ولا ألفاً، ومواضع وقوعه متعددة فكيف يمكن طرده: إنني أخاف أنه ينقل الأمراض، فنفوا ذلك وقالوا: إنه لا ينقل أي مرض، لأن هذه المنطقة لا تكاد توجد فيها جراثيم، والأمراض فيها أقل من أي مكان آخر من روسيا، لأن البرد الشديد يقتل الجراثيم التي تسبب الأمراض، حتى الزكام في الشتاء لا يكاد يوجد.

وقالوا يدافعون عن هذا البعوض، وكأنما يبررون هجومه: إنه يريد أن يمتص بعض الدم من الإنسان ليتغذى به، ليس غير !.

وعندما رأيت كبر حجم هذا البعوض، قلت: هذا حقه أن يسمى (شيخ البعوض)، كما تسمي العامة عندنا نوعاً كبيراً من الذباب (شيخ الذبان) بمعنى كبيرها.

لم تجد الإيماءات من الرأس، ولا الضرب بالأكف، ولا الرمح بالأرجل، ولا الهرب بالركض والهرولة من هجوم البعوض، فلجأ بعضنا إلى داخل السيارات وأغلق زجاجها دون البعوض راضياً بالحر داخلها، لأن الشمس كانت مشرقة حارة، على لسع البعوض ومواجهة هجومه.

العذاب بالبعوض:

يقول مثل عامي عندنا: « قال: طلع الجراد، قال: طلع العذاب »، أي قال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره: لقد طلع الجراد، بمعنى أنه وجد بعد أن لم يكن موجوداً، فقال صاحبه: لقد جاء العذاب معه، وذلك أنه يأكل زروعهم وثمارهم، بل ويأكل أعشاب البر التي تعيش عليها مواشيهم، ولكنهم أيضاً يأكلونه فيصطادونه في الشتاء مع مشقة وصعوبة في ذلك.

أما البعوض فإنه عذاب، وليست فيه مزية أخرى مثل التي تأتي مع الجراد، فهو لا يؤكل ولا ينتفع منه بشيء.

ومن التعذيب به ما أخبرنا أهل سيبيريا وغيرهم أنه كان من الشائع عندهم في هذه المنطقة الشمالية من سيبيريا على حدود الدائرة القطبية، حيث يكثر البعوض في الصيف أن من أراد أن يعذب خصمه حتى يموت، أو أراد قتله، ولكنه لم يرد أن يباشر ذلك بنفسه، فإنه يربطه إلى شجرة ويتركه للبعوض، فيظل البعوض يعضه ويشرب من دمه حتى يفنى دمه ويموت.

وقال لي كبار السن: إن الروس إذا غضبوا من شخص وأرادوا قتله، ربطوه إلى فرس، وتركوه يجره أو يقف به، فيظل البعوض يعضه حتى يشرب كل دمه ويموت.

ولا تنبغي المسارعة إلى استنكار ذلك لصغر البعوضة، وبالتالي قلة ما تأخذه من دم الإنسان، فإن (الكثرة تغلب الشجاعة) كما يقال، والبعوض يقبل عليه بمئات الألوف، بحيث يستطيع أن يشرب كل دمه إذا كان مربوطاً لا يستطيع الهرب منه، أو الاستتار بشيء.

وعلل أحد الإخوة منا شراسة البعوض في هذه المنطقة وأمثالها من الريف البعيد عن المدن، بأنها بسبب قلة الأناسي والحيوان، فالبعوض لا يجد من يعضه، لذلك يكون شرساً لشرب الدم.

وتسأل عما يفعله بالحيوان؟ والجواب: أنه لا حيوان هنا كما قدمت.

عود إلى الحديث عن النصب القطبي:

عدت إلى تأمل النصب غير مبال بالبعوض، لأنني لا أريده أن ينتصر عليَّ فيمنعني من معرفة ما أريد معرفته، فوجدته على هيئة دائرة تمثل الكرة الأرضية، تقاطعها دائرة أخرى إشارة إلى تداخل الزمن في هذه النقطة، كما قال لي أحد المرافقين.

ورأيت عجباً في هذه المكان، حيث الناس وبخاصة من الروس يزعمون أنهم متحررون من الخرافات، وهي أن بعض الناس يعقدون خرقاً في هذا النصب، مثلما رأيت غيرهم في أماكن عديدة من العالم يفعلون في الأشجار، حيث يعقدون فيها خرقاً أيضاً يزعمون أن ذلك ينفعهم لتحقيق رغباتهم أو دفع الشر عنهم.

فهي بهذا تشبه الشجرة التي ورد ذكرها في الحديث وهي (ذات الأنواط).

صورة تحت نصب نهاية العالم مع بعض الإخوة المرافقين

وكان أحد الإخوة الشيشانيين من سكان المدينة واسمه (زين الدين محمد)، وهو رجل متدين، يعمل متبرعاً في المسجد، وقد عرف شيئاً من أمور الدين، قال وهو يشير إلى هذه الخرق المعقودة في النصب: هذا شرك!

وشكله ولونه يشبه العرب، فليس أشقر، فقلت: لأنني ظننته أول الأمر عربياً، وكان لحق بنا بسيارته عند النصب: أأنت عربي ؟ فقال: مسلمان لا عرب، يريد أنه مسلم وليس بعربي، وقد أخرج كلامه مخرج الإنكار على من تمسك بعروبته على حساب دينه.

هذا وقد وصل الأمر بالبعوض أن يدخل بأعداد كبيرة إلى داخل السروال ومضايقة جسم الإنسان الداخلي، فأسرعنا بالتقاط الصور الداخلية، واللجوء إلى السيارات، وإغلاق زجاج نوافذها هرباً منه.

أما الأرض التي يقع فيها النصب، وهو بجانب الخط الإزفلتي المرفوع مع أكتافه عن الأرض، فإنها رملية أيضاً.

أرض ميتة وبعوض حي :

معنى اسم المدينة (نوفي) الجديدة، ومعنى (أرنغوي): الأرض الميتة بلغة خانتي من السكان البدائيين القلائل فيها، أسموها بذلك كما ذكرناه من كونها ليس فيها شيء من الطعام، ولا تنتج أي شيء يؤكل ما عدا السمك الذي هو من الماء، وليس من الأرض.

وقد أسموا المنطقة كلها بهذا الاسم (أرنغوي) بمعنى الأرض الميتة قبل إنشاء المدينة، بل قبل اكتشاف النفط والغاز الذي كان سبباً في إنشائها، وكلمة (نوفي) بمعنى جديدة أو جديد بالروسية جاءت بعد اكتشاف النفط والغاز.

ومن الأشياء الغريبة هنا أن نشعر بحرارة الشمس في هذه البقعة القصية من شمال سيبيريا، فنلوذ بالسيارة وقد اجتمعت حرارة الشمس ولسع البعوض، فتذكرت قول الشاعر في صفة أرض:

بها البق والحمى وأُسْد خُفِيَّة وعمرو بن هند يعتدي ويجور

فالبق الذي هو البعوض، أو نوع منه هو الكثير هنا، أما الحمى وهي الملاريا فلا توجد هنا، وكذلك الأُسْد - جمع أسد - لا توجد هنا أيضاً، وأما عمرو بن هند - أحد ملوك المناذرة - فإن شبيهه بل أشد منه شراً، وهو القائد الشيوعي كان موجوداً، ولكنه طرد منها بعد أن طرد مذهبه الشيوعي من البلاد، فمات كما ماتت هذه الأرض النائية.

هذا وقد لحق بنا أخ مسلم آخر بسيارته اسمه (طاهر محمد عبد الكريم) وهو شيشاني يعمل في التجارة، وله محلات تجارية عامرة في البلدة.

ومن الطريف من أمره أن له ستة أولاد، خمسة منهم معه في هذه المدينة، وهذا خلاف ما عليه الحال في هذه البلاد، حيث الإقلال من النسل هو الشائع فيها.

هل بعث في هذه المنطقة نبي؟

قد يبدو السؤال غريباً، ولكنه في محله، قال تعالى: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيه نذير ﴾ فهل سكنتها أمة حتى يبعث فيها نبي ينذر أهلها ويبشرهم؟

والجواب: إن التاريخ المعروف لها لا يقول ذلك، ونحن لا نستطيع إلا أن نقول ما قاله، لأن لعمارة منطقة من المناطق في التاريخ آثاراً تكون ظاهرة أو خفية يكتشفها المكتشفون، ولكننا نعلم كما يعلم كثير من الناس أن هذه الأرض القطبية الميتة كانت في فترة من فترات التاريخ أرضاً معتدلة عندما لم يكن القطب الشمالي للأرض في محله، بل إنه كان في منطقة قريبة من خط الاستواء في عصور سحيقة، وقد أثبت البحث العلمي ذلك عن طريق كشف عروق أشجار تحت قاع المحيط المتجمد الشمالي لأشجار لا تنبت إلا في مناطق حارة أو معتدلة.

ويوم ذلك يقال: إنه ربما كان في هذه المنطقة أمة من الأمم قد سكنت، فإذا كان الأمر كذلك، وكانت صالحة للسكنى ووجدت فيها أمة من الأمم، فإنه يمكن القول بأنه قد بعث فيها نبي في وقت من الأوقات. والله أعلم.

أما في الوقت الحاضر فإننا شهدنا فترة تاريخية ليس فيها سكان لهم عدد يذكر، ثم شهدنا أناساً يسكنونها بينهم عدد من الإخوة المسلمين الذين لهم هذا المسجد العامر الذي هو أول مسجد في هذه المنطقة، والله أعلم بما يؤول إليه فيها الحال.

العودة إلى نوفي ارنغوي:

بدأنا العودة إلى نوفي أرنغوي، ولم أكن أريد أن أغادر هذه المنطقة الغريبة لولا الخوف من نفاد الوقت، ومن لسعات البعوض.

وسرنا قليلاً ثم أوقفنا السيارة، ولم نجد بعوضاً أول الأمر في توقفنا، إلا أنه سرعان ما تجمع علينا وبدأ يهاجمنا، وكأنما لم يكن يتصور أنه قد يوجد أناس في المكان، ثم عرف ذلك.

وقد مررنا في الطريق بأماكن عليها علامة مميزة مثل علامة صليب أو نحوه، ذكروا هنا ما ذكره أهل (توبولسك) عندما رأينا مثلها على الطريق وهو أنه حدثت في هذا المكان حادثة مات فيها آدمي، وعادتهم أن يضعوا في مكان موته علامة مثل هذه.

ورأيت في اثنين منها هنا زهوراً ربما كانت اصطناعية، ولكنهم أرادوا أن يسجلوا تلك الحادثة، حادثة موت إنسان في هذه المنطقة بهذه الطريقة.

ومررنا بمدخنة غاز بدون نار، إلى جانب مداخن أخرى تتقد بالنار،

فقال المرافقون: إنه إذا كان الغاز يخرج منها دون أن يحرق، فإن من يكون قريباً منها يموت من الاختناق بالغاز.

وقد تعددت رؤية الأنابيب التي تنقل الغاز إلى خارج المنطقة، وبدا كما لو كانوا أكثروا من خطوط الأنابيب الصغيرة الضيقة.

ورأيت أعشاباً في أطراف المستنقعات، وقدرت أنها التي رأينا مثلها من الطائرة على الماء أو حوله، كالطحلب، ومعها الزهور البرية، وإن شئت الدقة قلت: إنها الوحشية، بمعنى أنها التي لم تزرع، وإنما تنبت نباتاً طبيعياً، فأوقفت السيارات وصورتها، كما التقط الرفاق عدة صور تذكارية.

وقد أعجبتني كثافة الأعشاب، فتمنيت أن تكون في بلادي، لكنني اشترطت في أمنيتي ألا يكون معها بعوض!

تذكارية مع الرفقة داخل الدائرة القطبية بعد نصب نهاية العالم

وأما البرد الذي تكون عليه هذه البلاد في الشتاء، فإنه لا يتمناه أحد، وهو لا يبقي على حياة من عشب ولا غيره.

ومرة أخرى تخيلت المرعى في بلادنا الصحراوية، وأنا أرى الأعشاب الطبيعية، فقلت في نفسي: هذا معنى ما ذكرته العرب القدماء في أمثالها من قولها في المثل: « عُشْبٌ ولا راعية » أي عشب كثير، ولكن ليست فيه ماشية ترعى.

وهنا لا راعية ولا غيرها من المواشي، ولو وجدت الآن في هذا الفصل الصيفي الجيد لما استطاعت أن ترعى، لأن العشب نابت في أراضٍ رخوة تملؤها المستنقعات، ثم ماذا تكون عليه حال الماشية الراعية إذا هاجمها بعوض المنطقة؟

هذا فيما يتعلق بالماشية الراعية أو غير الراعية، فماذا عن الطير الذي لا تمنعه المستنقعات من الوجود هنا، بل إنها قد تفيده لكونها تيسر له الحصول على ما يريده من الغذاء، و من الحشرات، وحتى هذا البعوض الكثيف تأكله، وربما تعيش على مثله بعض الطيور ؟

إنني لم أرَ طيوراً هنا رغم أنني تعمدت أن أرى شيئاً بمعنى أنني بحثت عن ذلك، وقال الأخ رشيد بن سلطان أحد الإخوة الحاضرين، وهو من الشيشان أيضاً: ربما كان الطير يفر من رائحة الغاز، وإن لم تكن منتشرة في المنطقة، فإنها موجودة فيها، ثم إن الطير لا يجد أناساً يعيش معهم، فقلت: هذا في الطير الإنسي، أما بالنسبة للطير الوحشي فإن وجود الناس في مكان قد ينفره عنه، إذا كانوا يضايقونه أو يسعون إلى اقتناصه وصيده.

وقد عدنا مع الطريق نفسه الذي خرجنا منه، ولم ينقض عجبنا من منظر المستنقعات الشاملة التي امتدت وظلت موجودة حتى قبل دخول المدينة.

عدنا إلى فندقنا في الساعة السابعة والنصف عصراً، وإن قلت مساءً

صح الأمر صحة اصطلاحية.

وإنْ قلت السابعة والنصف ضحىً بعد العصر قد يصح ذلك، لأن منظر الشمس والسماء يوحي بذلك، لأن الشمس رغم كوننا في آخر النهار لم تغب، ولم ترتفع في السماء.

فقه المناطق القطبية:

عندما رأيت تقلب الجو هنا، وحالة الشمس، وكونها لا تصلح للاستدلال على الوقت إلا لمن عنده خبرة دقيقة بتحركاتها، بل وجولاتها في هذا المكان، وقليل ما هم، لأنها تختلف أماكنها بعد فترة قصيرة من الزمن عندما يبدأ الليل بافتراس النهار، وأخذ مقادير كبيرة منه بسرعة، حتى يضمحل النهار ويسود الليل في الشتاء البارد.

وحتى القوم من عامة الناس لم أرهم يعوّلون على الشمس في معرفة الوقت لما ذكرته، وإنما يعتمدون على ساعاتهم، وذكروا لي أنهم لا ينتفعون بالشمس إلا لمدة ثلاثة أشهر، لأنها في غيرها وإن طلعت لا يكون لها تأثير ولا حرارة.

وقد تأكدت من موقع الشمس الآن في الثامنة مساءً، فوجدتها كما لو كانت في الجنوب، ولا أدري صحة ذلك، فهي تبدو كما تبدو في الثانية ظهراً.

أوقات الصلاة:

عندما رأيت الأمر هكذا عندهم في عدم ضبط الوقت بطلوع الشمس وغروبها في فصل الصيف هذا الذي لا شك في أن فصل الشتاء يكون قريباً منه في عدم اعتمادهم على الشمس في معرفة الأوقات، بل عدم وجودها في بعض الوقت، لأن هذه طبيعة هذه الأقاليم الشمالية

النائية، سألتهم عن أوقات الصلوات في الوقت الحاضر ؟ فأخبروني أنهم يصلون المغرب في الساعة العاشرة والثلث مساءً اصطلاحياً، وتكون الشمس حية لم تغرب، ولكن هكذا الوقت في مدينة (تومين) التي يعتمدون توقيتها، لكونها فيها غروب وشروق للشمس مستمر طوال العام، وهي أقرب مدينة إليهم فيها مسلمون كثير.

قالوا: ونصلي العشاء في الثانية عشرة، لأنه لا يوجد شفق يمكن أن يغيب، بل السماء تبقى منيرة طوال الليل، كما ذكروا أنهم يصلون الفجر في الثالثة والنصف بعد أن تكون الشمس قد أشرقت في مثل هذه الأيام.

وهذا كله مطابق لوقت تومين.

قلت لهم: وماذا عن الصيام ؟ فذكروا أنهم صاموا رمضان الماضي أربع ساعات فقط، لأنه في فصل الشتاء، فسألتهم عن الصيام في الصيف، أي إذا حل رمضان في الصيف وصار النهار (٢٢) ساعة، فذكروا أن هذا لم يصادفهم بعد، لأنهم منذ أن أحلوا في هذه المدينة قبل سنوات لم يكن رمضان يأتي في الصيف.

ومن المعلوم أن الفرق بين التوقيت القمري الذي تثبت به رؤية هلال رمضان وانقضائه هي أحد عشر يوماً إلا ثلثاً في السنة، وذلك يساوي أو يقارب (٣٣) سنة، بمعنى أنه إذا دخل شهر رمضان في اليوم الأول من يوليو على سبيل المثال في سنة، فإن ذلك لن يتكرر إلا بعد مضي (٣٣) سنة تكون الفصول فيها قد تكررت، حتى عاد رمضان إلى أول شهر يوليو نفسه.

حدثني الشيخ نفيع الله عشيروف رئيس الإدارة الدينية للأقسام الآسيوية من روسيا أنه زار مرة أظنه قال في العام الماضي بلدة (نويف ارنغوي) هذه، قال: وكان ذلك في الصيف، إذْ كانت الشمس تشرق في

الثانية بعد منتصف الليل في ذلك الوقت.

قال: فأشرقت الشمس ولم يصلوا، لأنهم يتبعون وقت تومين الذي يحل فيه وقت الفجر في الثالثة والنصف، قال: فكنا في المسجد ننتظر أن يحل وقت الفجر في تومين، وكانت الشمس مشرقة، وقد اعتادوا على أن يصلوا الفجر في الثالثة والنصف ثم ينامون، فقلت لهم: مادامت الشمس قد طلعت في الثانية فصلوا ثم ناموا فامتنعوا من ذلك، وشق ذلك على الناس.

إن هذا يجعلني أقول: إنه لا بد للفقهاء من علمائنا وللمجامع الفقهية من أن يبحثوا في جميع المسائل المتعلقة بالعبادات، بل والمعاملات في هذه المناطق على ضوء حالة الشمس وتبدل الليل والنهار بما هو معتاد في الحواضر الإسلامية.

وقد انتشر الإسلام وبنيت مساجد أو استؤجرت أماكن للصلاة في عدة مواضع من الدائرة القطبية، من ذلك مسجد (نوفي أرنغوي) هذا، ومصلى في الدائرة القطبية في فنلندا زرته، وبلغنا أن مسجداً يبنى في مدينة (مورمانسك) التي لا تغيب عنها الشمس في أيام من الصيف.

بل أبلغني الشيخ نفيع الله أن مسجداً أوشك على الانتهاء هو أبعد من هذه المساجد جهة الشمال، ولكنه واقع شرقاً عنها، وإنهم يبحثون الآن عن إمام له، ولم أتذكر المكان الذي يقع فيه، لذا لا بد من نشوء فقه يسمى (فقه المناطق القطبية) يوضح حكم الشرع، والقول الراجح عند الفقهاء، فيما لم يرد نص شرعي فيه، مع مراعاة دفع الحرج عن الأمة.

فالأمر ليس مقتصراً على فقه الصلاة، بل إنه يشمل أيضاً أحكام الصيام إذ كيف نكلف المسلم أن يصوم الأيام كلها التي لا تغيب فيها الشمس، وإذا بدأت الشمس تغيب، وهي تفعل ذلك تدريجياً، وحل شهر رمضان في الوقت الذي لا تغيب فيه إلا دقائق أو حتى ساعة واحدة أو

ساعتين، فهل نكلفه الصيام (٢٣) ساعة ؟

وكذلك الأحكام التي تحسب بالأيام مثل عدة الطلاق، وعدة الوفاة، والدين المؤجل بأيام معينة، والنذر بالصيام لأيام معينة إلخ.

الاجتماع بالمسلمين:

كان موعد الاجتماع بالمسلمين هو الثامنة والنصف عصراً في المسجد.

ووجدنا فيه بعضهم، ثم صاروا يتقاطرون عليه، إلا أن بعضهم لم يحضر لأن الإخوة لم يتمكنوا من إبلاغه، وقد حضر منهم نحو (٤٠) شخصاً، وهذا عدد لا بأس به.

رحب بي الإخوة المسؤولون في الجمعية الإسلامية، وعلى رأسهم الأخ (خوان) نائب رئيس الجمعية.

ثم طلبوا من أن ألقي فيهم كلمة ذكروا أنهم يتطلعون إليها، لأننا أول وفد إسلامي يأتي إلى بلادهم من مكة المكرمة.

فألقيت فيهم كلمة مبسوطة تضمنت الحمد والشكر لله تعالى الذي قدر لنا الوصول إلى هذه المدينة، وأقر عيوننا برؤية مسجدكم العامر، والاجتماع بكم أيها الإخوة في الدين.

أيها الإخوة، إن زيارة المسلم لأخيه المسلم هي أمر مطلوب لذلك يثاب عليه المسلم ثواباً عظيماً، كما في الحديث: (إذا زار المسلم أخاه المسلم لم يخط خطوة إلا كتبت له بها حسنة أو حطت عنه بها سيئة).

وبالنسبة إلى زيارتكم فإنها مهمة، لأنها سوف تفتح باباً للتعاون ما بين جمعيتكم الإسلامية وبين العالم الإسلامي، وسوف تجدون الترحيب من الرابطة بالتعاون معكم لأمرين، الأول: لكونكم من الإخوة المسلمين الذين تتعاون

معهم الرابطة. الأمر الثاني: هو كونكم مقيمين في مكان مهم من العالم المسلم، بسبب البعد القصي ما بينكم وبين الرابطة، ومسجدكم الآن هو أقرب مسجد من القطب الشمالي من هذه الجهة.

صورة تذكارية داخل مسجد نوفي أورنغوي مع جماعة المسجد

لذلك كان الغرض الرئيسي من زيارتنا هو إبلاغكم تحيات إخوانكم في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، والاطلاع على أحوالكم لمعرفة ما يمكن أن تتعاون الرابطة معكم فيه، وقد سرنا أن رأينا مسجدكم هذا عامراً، وإن كان أصبح صغيراً بالنسبة إلى زيادة حجم المصلين، وكثرة المسلمين، ولذلك نقول كما قلتم: إنه لا بد من بناء مسجد واسع يتسع لجميع المصلين، وبخاصة في أوقات البرد الشديد الذي لا يستطيع المرء أن يصلي فيه خارج الأماكن المدفأة.

وقد أوصيتهم وأكدت عليهم العمل في الحصول على أرض المسجد الجديد، ما دام أن الحكومة سوف تعطيهم الأرض بالمجان، وألا يتوانوا في ذلك. وقلت: إن كل من يعمل على إنشاء هذا المسجد له أجر عظيم من الله سبحانه وتعالى، وسوف يكون له أجر كل من صلى فيه من غير أن ينقص

من أجره شيء.

وخاطبت أعضاء الجمعية الإسلامية قائلاً: إنه يجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى وتشكروه الذي وفقكم إلى العمل لخدمة الإسلام والمسلمين في هذه البلاد، وهي خدمة عظيمة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وأنتم أيها الإخوة من غير أعضاء الجمعية الإسلامية، يجب عليكم أن تساعدوا بما تستطيعون من جهد أو مال، فالدعوة الإسلامية بحاجة إلى جهودكم مجتمعين، وثقوا أن من يوفق للعمل الصالح فإنه الموفق حقاً، لأن الإنسان لا يبقى له إلا العمل الصالح، فالمال والبنون يفارقهم المرء سواء أطال به العمر أو قصر، والذي لا يعمل عملاً صالحاً يعيش كما يعيش الحيوان الذي يأكل ويشرب ويموت.

وقلت لهم: إن نعمة الإيمان هي نعمة عظيمة لا تعادلها نعمة، ولو كانت تشتري بالمال لرأيتم كيف يتنافس فيها أرباب الأموال، ولكنها تشترى بالعمل الصالح والتوفيق من الله تعالى. وأوصيتهم بأولادهم وأولاد المسلمين في هذه المنطقة النائية خيراً بأن يحرصوا على تنشئتهم تنشئة إسلامية، سواء أكان ذلك بتخصيص فصول كالتي رأيتها في المسجد أو بإنشاء مدرسة متكاملة يتوفر فيها تعليم المنهج الحكومي، إلاّ ما لا حاجة إليه إلى جانب العلوم الإسلامية، ويتولى القيام فيها أناس من ذوي الغيرة على الدين الإسلامي الحنيف، لأن التربية في المدرسة ربما تكون معادلة للتعليم.

ثم أخبرتهم بأنني وأنا في مسجدهم أتذكر جلسة مثل هذه الجلسة في مكان بعيد، بل معاكس في بعده المكاني لمسجدكم هذا، وهو مسجد مدينة (كرايست تشيرتش) في الجزيرة الجنوبية من نيوزيلندا التي تقع إلى الجنوب الشرقي من أستراليا، فإخوانكم أولئك يقولون: نحن أقرب من يقول: الله أكبر إلى القطب الجنوبي، يريدون أن مسجدهم أبعد

المساجد جهة الجنوب، وأنهم بذلك يكون مسجدهم أقرب المساجد إلى القطب الجنوبي قرباً نسبياً، وأنتم تستطيعون أن تقولوا عكس ذلك بأنكم أقرب من يقول: الله أكبر، بمعنى يؤذن في المسجد، إلى القطب الشمالي، وقد سرّوا لذلك، فقلت لهم: كأنكم هنا حراس العالم الإسلامي في هذه المنطقة، يجب أن تقووا أنفسكم بالعمل الصالح وإقامة المسجد الكبير الواسع، لأنكم لا تدرون عدد الذين قد يهديهم الله للإسلام من أهل هذه البلدة، ولا من غيرها ممن قد يأتون إليها.

وقلت لهم: إن ذلك ليس بمستبعد، فقبل ثلاثين سنة لم يكن هنا مسجد، بل ولا عدد يعتد به من المسلمين، واليوم هاأنتم عدد جيد ولله الحمد حسّاً ومعنى.

وإذا كان بعض المسلمين غير ملتزم الآن بكل ما يأمر به الإسلام، ومن ذلك حضور الصلاة مع الجماعة، فإن الأمل أن يتغير ذلك إلى الأحسن في المستقبل بإذن الله، كما شاهدنا ذلك في عدد من البلدان على مستوى العالم.

في الختام أعلنت لهم تبرع رابطة العالم الإسلامي لهم بأربعة آلاف دولار ونصف، منها ألفا دولار للنفقات المتكررة للمسجد الحالي من التدفئة والكهرباء، وخمسمائة دولار مساعدة لإمام المسجد، وألفا دولار لإنجاز المخططات للمسجد الجديد الذي سوف نرى أرضه معهم غداً إن شاء الله.

وقد سروا لذلك وشكروه، فهذا المبلغ يعتبر كبيراً عندهم بالنظر إلى الأزمة الاقتصادية التي تتخبط فيها البلاد الروسية، وقلة النقود بأيدي الناس، وتدني قيمة العملة الروسية.

وبعد ذلك أخذوا في توجيه الأسئلة التي منها أسئلة تتعلق بأمور

الدين، ومنها أسئلة تتعلق بأحوال المسلمين في العالم.

وكنا نتحدث بالعربية، فيترجم كلامي إلى الروسية الفتى الشاب (محمد شمسي)، وإن لم يكن قوياً في العربية، فإنه يستطيع أن يعبر بالترجمة إلى الروسية ومنها بما يفيد.

صلاة المغرب قبل غروب الشمس:

كنا في الاجتماع معهم، وكانوا ينظرون إلى ساعاتهم وإلى بيان بأوقات الصلوات معلق في المسجد، عرفت أن أوقات الصلوات فيه موضحة حسب توقيت (تومين). فأذن أحدهم لصلاة المغرب والشمس حية، بل تملأ الشوارع، ثم أم القوم بناء على طلب مني الشاب (محمد شمسي)، فقرأ من أواسط المصحف قراءة جيدة متقنة.

وقد جمعنا العشاء مع المغرب، أما هم فإنهم سوف يصلون العشاء بعد ثلثي ساعة أو نحوها من صلاة المغرب.

وعندما فرغنا من صلاة المغرب كانت الشمس لا تزال تملأ الأسواق.

وسبب ذلك أنهم يتبعون وقت مدينة (تومين) التي تبعد نحو (١٣٠٠) كيلومتر جنوباً، وهي أقرب المدن التي يقطن فيها مسلمون إليهم، وفيها غروب وشروق حقيقي كما قدمت.

وفعلهم هذا هو أحد قولين في أوقات الصلاة في البلاد التي لا تغيب عنها الشمس، أو تغيب غياباً قصيراً لا يتسع للصلوات الثلاث كلها المغرب والعشاء والفجر، وهو أن يتبعوا توقيت أقرب مدينة مسلمة منهم.

والقول الثاني: أن يقدروا لأوقات الصلوات تقديراً ما دام الأمر هكذا.

فالقولان - إذاً- متفقان على أنه يمكن أن يصلي المسلم المغرب في

هذه البلاد وأمثالها قبل أن تغرب الشمس.

وبعد الصلاة انتقلنا إلى غرفة ملحقة بالمسجد، وقد زاد عدد القوم، وحضر منهم على الخصوص الأخ أسامة بن زيد، وهو تاجر من الأنقوش مقيم في المدينة، وقد كثرت الأسئلة في أمور الدين وفي الأمور العامة، فأحضروا العشاء، كل شخص يعطونه عشاءه في صحن خاص به، ولم يعطوا بعضهم، مما يوحي بأن الطعام لم يكن قد أعد لهذا العدد كله، ومع ذلك قدموا الفاكهة الغالية، وأكلوا منها معنا قليلاً.

نهاية البرنامج بنهاية اليوم:

عدنا إلى الفندق من المسجد في الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، وقد غربت الشمس قبل دقائق.

ولكن السماء، بل والأرض وكل شيء بدا كما لو لم تكن الشمس قد غربت، فالنور الغامر يملأ الآفاق، والسماء مضيئة بنور ظاهر، بحيث يستطيع المرء أن يقرأ الصحيفة ونحوها من دون سراج، مع أننا الآن بعد الثانية عشرة ليلاً اصطلاحياً.

وكان عجبي بالغاً إذ الشمس غربت، ومع ذلك كان النور غامراً، ليس كما كانت الشمس طالعة بطبيعة الحال.

ولكن لا ظلام، مما ذكرني بما ورد في الحديث من أن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر، فسأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ عن النور الذي يهتدون به فقال: (إنها مثل ساعتك هذه)، وكان ذلك قبل شروق الشمس بقليل.

وهذا كان في المدينة المنورة، حيث كثافة الأرض، أما في هذه المنطقة الشمالية حيث طرف الأرض غير الكثيف منها، فإن الليل كله

الذي تغيب فيه الشمس يكون النور فيه مثل النور قبيل شروق الشمس في بلاد العرب. ولكن في أطراف الصيف فقط مثل وقتنا هذا.

ومثل هذه الأمور واللمحات الواردة في الأخبار والآثار مما يزيد المؤمن إيماناً، لأنها تجعله يتصور بعض ما جاء في النصوص الشرعية الصحيحة منها، وفي الوقت نفسه، يؤكد اختلاف الوضع بين ما عليه الحال في الدنيا عما عليه الحال في الآخرة، فقد ذكر الرسول ﷺ أنه لا توجد في الجنة شمس ولا قمر.

وهذا المتبادر العلمي للذهن، لأنه لو كان فيها شمس وقمر مثل اللذين في الدنيا، لكان معنى ذلك أن فيها نظاماً شمسياً له عمر مقدر من السنين تقوم قيامته بعدها، فينفرط بعدها ويتلاشى، ولكن أمر الآخرة أجل من ذلك وأعظم، وهو مختلف كلياً عن أمر الدنيا . والله أعلم.

نور الليل:

تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أو كادت، ولم يطرق عيني النوم، لأن ذهني كان مأخوذاً بهذه المناظر الغريبة، وبالأشياء التي أراها واسمع بها لأول مرة، لذلك بادرت إلى إطفاء النور في الغرفة لعلي أحصل على قسط ولو ضئيلاً من النوم ينفعني في تجوالي غداً، حيث من المقرر أن نسافر ظهراً من مدينة (نوفي ارنغوي) إلى منطقة الأورال في جنوب سيبيريا، ومن المقرر أن يستغرق ذلك النهار كله وطرفاً من الليل.

إلا أنني عندما أغمضت عيني وكان جزء من النافذة قد انحسرت فيه الستارة أقلقني نور الليل، ومنع عني النوم، فقمت أتعجب وأنظر من النافذة التي لم يكن أمامها أي شيء من البنيان، بل كانت تفتح على فراغ مطلق كأنه الصحراء عندنا، ولذلك حاولت أن ألتقط لها صورة فلم أرها يظهر فيها أي معلم.

وكان الليل منيراً كما قدمت، لذلك أسدلت ستارة النافذة، ونمت إذْ كان (نور الليل) قوياً بحيث لا تتحمله عيني، وذلك في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

يوم الثلاثاء ١٤/٤/١٤٢٠هـ ٢٧/٧/١٩٩٩م:

بلاد العجائب والشدائد:

كنت أفكر في هذه البلاد وأنا أحاول النوم، وقد نمت بالفعل نوماً جيداً، وعندما أصبحت فتحت ستارة النافذة، فإذا بضباب يغطي الصحراء التي تشرف عليها النافذة، فخشيت أن يكون برد، أو يكون بعده مطر، ولكن الله سلم، إذْ ما إن صليت وتناولت شيئاً خفيفاً مع شاي صنعته في الغرفة حتى انجلى الضباب، وظهر لي أن الشمس قد أشرقت قبل فترة لا أدري مقدارها، إلا أنني لم أرها من نافذتي التي تفتح جهة الجنوب، ثم ذهبت أنظر إلى الشمس، فوجدتها في جهة الشمال، وكأنما هي أشرقت من الشمال أو من الشمال الشرقي.

وقلت في نفسي: إن هذه بلاد العجائب، ثم تذكرت حالتها في الشتاء عندما تتدنى البرودة إلى (٦٠) درجة تحت الصفر، فوجدتني أضيف وصفها أيضاً: ببلاد الشدائد.

وكانوا قالوا: إن الشمس تغرب في أيسر المغرب، وتشرق في أيمنه، ولم أصدق ذلك، بل لم أتصوره.

ومن عجائبها الظاهرة هذه الحركة للشمس، وإن شئت الدقة قلت: هذه الحركة للأرض حول الشمس، وكونها نهاية العالم، وكونها لا يعيش حيوان أو طير في ريفها، ما عدا البعوض الذي نما وتكاثر فيها إلى درجة مخيفة، وكونها أرضاً ميتة لا تنتج شيئاً مما يأكله الإنسان والحيوان إلا السمك الذي ينتجه الماء.

وأخيراً أنتجت الغاز والنفط الذي ينتج النقود التي يشترى بها الطعام.

إلى أرض المسجد:

جاء إليّ في الفندق الأخ الكريم (خوان عبد الحميد) رئيس الجمعية

الإسلامية بسيارته، وخلفه سيارتان فيهما بعض المسلمين، فخرجنا من الفندق في الساعة التاسعة صباحاً نريد أن نرى الأراضي المقترحة لتكون مقراً للمسجد، وقد عرضتها الحكومة على المسلمين، وأنها ستمنحهم أرضاً من الأراضي الحكومية ليقيموا عليها مسجداً، وقد خيرتهم بين أراضٍ ثلاث، في أماكن ثلاثة من المدينة، وكتبت لهم في ذلك كتاباً أرونا إياه، وقال الإخوة: إننا نريد أن نشاوركم في اختيار مكان من الأمكنة الثلاثة، فوجودكم عندنا فرصة تنتهز.

ذهبنا مع شارع رئيسي في البلدة، فكان من الأشياء الظاهرة فيه أن الرمل قد جلل الطريق الزفتي مثلما تكون عليه الحال في الطرق البعيدة في الأراضي الرملية الصحراوية، والعادة في مثل هذا الرمل الذي هو خفيف جاءت به الريح أن تذهب به ريح أخرى، ولو كانت خفيفاً، وربما لا يحتاج إلى ريح، وإنما عجلات السيارات المسرعة تفعل ذلك.

صورة تذكارية على أرض مسجد نوفي إورنغوي

هذا والشمس الآن في الشمال، مع أن الساعة لا تزيد على التاسعة صباحاً إلا قليلاً، ومع ذلك هي حارة، والسبب في ذلك هو مواجهة هذا

الجزء من الأرض لأشعة الشمس في هذا الفصل من السنة كما سبق إيضاح ذلك.

ولاحظت أن البعوض في هذا الصباح أقل منه في وسط النهار وآخره، ولا أدري السبب مع أنه موجود.

وقفنا على إحدى الأراضي، وهي أرض رملية خالية إلا من أعشاب وحشية كالأعشاب في الربيع، والأرض على شارع واسع رئيسي، وموقعها مناسب، لأن خلفها حديقة حسب تخطيط البلدية، وإلا فإن الحديقة لم تنشأ بعد، وليس بجانبها شيء من الأبنية، ولا ينتظر أن يكون بجانبها منها شيء في المستقبل، وهذا أمر جيد حتى يتمكن الإخوة من الأذان بالمكبر من دون أن يدعي الجيران أن ذلك يزعجهم، بل إن التجمع للصلاة وكثير من الناس يأتون بسياراتهم قد يجعل بعض الجيران يشكون من وجود المسجد إذا كان له جيران ملاصقون.

وهي في حي اسمه: (نوفا داروقا)، ومعناها: الطريق الجديد.

ويقابل الأرض من جهة الشمال (شارع سيبيريا)، كأنما أراد الذين سموه بهذا الاسم ألا يجعلوا الناس ينسون البرد حتى في الصيف.

مع العلم بأن هذه المنطقة معتبرة من سيبيريا، بل هي أقصى شمال سيبيريا.

رأينا هذه الأرض مناسبة جداً لموقع المسجد فهي واسعة، وليس لها جيران ملاصقون، وبجانبها أرض حكومية يمكن أن يشتروها ليقيموا عليها مدرسة في المستقبل.

ثم انتقلنا إلى الأرض الثانية التي عرضت الحكومة أن تعطيهم إياها، وهي غير بعيدة من الأولى، وعليها بيوت حكومية بدئ في بنائها، ولم تكتمل، فعدلت الحكومة عن إتمامها، وعليهم أن يهدموها إذا أرادوا البناء على الأرض،

ولكنها على شارع رئيسي واحد، وأقل سعة من الأولى، ولها جيران من بعض الجهات.

صورة تذكارية مع الأخ خوان عبد الحميد رئيس الجمعية الإسلامية في شارع سبيريا في نوفي أورنغوي

والأرض الثالثة واقعة على شارع سيبيريا الرئيسي الواسع، ومساحتها أقل، وهي كافية للمسجد، لكن الأولى أوسع وأفضل لما ذكرته، ولشيء آخر ذكروه لنا بعد ذلك، وهو أن أنابيب الماء والغاز تمر بها مع الشارع الذي تقع عليه المسمى (الطريق الجديد)، لذلك لا يحتاج الآخذ منها إلى عناء ولا إلى نفقة، وأرض هذه الأرض الثالثة كالأولى رملية، غير أن هذه مليئة بكسر الزجاج المحطم الذي هو بقايا زجاج الخمر لقربها من المساكن.

وذكروا أن الحكومة ستعطيهم الآن أربعة آلاف متر مربع، ويظنون أنها تعطيهم أكثر من الأرض إذا طلبوا، لأن صلتهم برجال الإدارة جيدة، والمسجد مرفق عام تقوم عليه جمعية خيرية، إضافة إلى ما يؤمل المسؤولون

في البلدية من أن يزين المدينة وجود المسجد فيها، وإن تأتي للمسلمين نقود لبنائه تفيد أهل المدينة، وقد ذكروا أنهم سيبدؤون غداً إجراءات تسلم الأرض من البلدية، ثم ينفقون على الرسومات والمخططات من التبرع الذي أعطيناهم، ثم يبدؤون في حفر الأساس، ويكتبون إلينا يخبروننا بذلك من أجل المساعدة على بناء المسجد.

دروع البعوض:

بينما كنا نسير في الأرض الثالثة الواقعة على شارع سيبيريا لفت نظري شيء كالصدري الصغير الذي تلبسه الفتيات والشبان، لكنه مفتوح الصدر، وأحياناً يكون له جزء يغطي الرأس أيضاً، ولما كان شكله غريباً لم أر مثيلاً من قبل، ولم أدر السبب في لبسه اتجهت إلى طائفة منهم ممن يلبسونه وسألتهم بالإشارة عنه، ثم ترجم الإخوة إجابتهم بأنه لصد البعوض عن الإنسان، لأن له رائحة كيماوية ينفر منها البعوض.

لابسو أقنعة البعوض في أورنغوي

هذا مع العلم بأن البعوض الآن قليل، وليس كما كان عليه الحال

في خارج المدينة، وبخاصة عند نصب (نهاية العالم)، ولو كنا عرفنا بوجود مثل هذه الدروع (البعوضية) لكنا طلبنا من إخواننا أن يعيرونا منها، أو اشتريناها وتركناها لهم !.

وهذا الصدري أو القناع لأن له جزءاً يتدلى أمام الوجه، هو مشبك بحيث يبدو كما لو كان صدرياً متصلاً به قناع من شباك.

ونوهوا بأن هذه الرائحة التي ينفر منها البعوض لا تضر الإنسان.

في مركز المدينة:

المدينة صغيرة لذلك وصلنا إلى مركزها بسرعة، ومركز المدينة حديث لا يوحي مظهره بذلك، ولا يمكن وصفه بالقدم.

وكان وقوفنا أمام مبنى يسمونه مبنى أكتوبر، وأكتوبر هو الشهر الذي يحتفل فيه الشيوعيون بذكرى الثورة الشيوعية، ولكن الشيوعية ذهبت وذهب معها أهلها مذمومين مدحورين، وبقي المبنى حكومياً يستعملونه للمناسبات المهمة، وبعضهم يسميه المركز الثقافي.

وأخبرنا الإخوة أنهم عقدوا فيه مؤتمراً إسلامياً محلياً لأهل سيبيريا في (٢٣) من شهر مايو الماضي، وأنه أول مؤتمر إسلامي يعقد في المدينة.

ويقابله المسرح الوطني، بينهما الشارع الرئيسي.

وقد التقط الإخوة صوراً تذكارية عديدة في المكان، ثم انتقلنا منه ورأينا خزانات مياه الشرب التي تدخل المدينة، وقد غلفوها بمادة عازلة تبدو من البعد كأنما هي القصدير، ذكروا أن ذلك من أجل تدفئتها إلى جانب أمور أخرى تمنعها من أن تتجمد، فلا تسيل في الأنابيب في فصل الشتاء القارص.

وفي ضواحي المدينة رأينا أيضاً الرمل الشامل لأراضيها، ومناقع المياه

العديدة.

ولاحظنا أن الشمس اليوم أكثر حرارة منها بالأمس حسب ما شعرنا به، وقال الإخوة: إن سبب ذلك أنها كانت أمس بعد مطر، لذلك لم تكن حرارتها شديدة.

عدنا من أرض المسجد إلى الفندق لإعطائهم النقود التي أعلنا لهم التبرع بها، وهي صكات (شيكات) سياحية، سألوا عن كيفية صرفها، فقال الأخ (أسامة بن زيد) أنا أستطيع صرفها لكم، لكونه تاجراً صاحب محل تجاري مزدهر.

وكانوا قالوا مثلما قال خوان لهم من قبل من أهل سيبيريا وغيرها من أنحاء روسيا: إننا لا نستطيع أن نضع هذه الدولارات في البنوك، لأن البنك يفلس في العادة، أو يعلن أهله والقائمون عليه أنه أفلس من أجل أن يأكلوا أموال الناس، ولا تستطيع الحكومة أن تصنع لهم شيئاً، بل إن الحكومة نفسها لا ترد أموال الناس الموجودة لديها.

دفعنا للفندق أجرته الضئيلة بالنسبة إلى حجمه ومستواه، وأخذنا حقائبنا معنا، وكان يصحبنا عدة سيارات من سيارات الإخوة المسلمين، فطلبوا منا أن نعود إلى المسجد من أجل تناول الطعام، لأن الطائرة ليس فيها طعام، وغيرها ليس بحلال، وهم جماعة معنا.

ولمناسبة وجود سلطة في الغداء تعتبر نفيسة هنا، بل غاية في النفاسة، لأنها لا تنبت في المدينة، ذكروا بعد أن سألناهم أن كيلو الطماطم يباع بـ (٤٠) روبلاً أي سبعة ريالات وربع. وكذلك الخيار يباع الكيلو منه بـ (٤٠) روبلاً.

ومن الغريب في الغداء اليوم أنهم أحضروا فيه نوعين من السمك، أحدهما مملح غير مقلي ولا مشوي، وإنما حكمه عندهم أن يملحوه

ويحفظوه، والجو كفيل بكونه لا يفسد.

وهو من البحيرات القريبة من المدينة، وكان الطبق الرئيسي أرزاً فيه لحم الدجاج، ومعه البطاطس.

مغادرة نهاية العالم:

خرج معنا الإخوة كلهم في عدة سيارات، والغرض من ذلك إكرامنا بتوديعنا في المطار.

ولم يفهم الذين معنا أول الأمر، فذهبوا بحقائبنا إلى حيث يرحل الناس حقائبهم، ثم عرف موظفو المطار أن جوازي (دبلوماسي) فأرسلوها إلى مكان خاص بترحيل المسافرين من كبار الضيوف، وحملة الجوازات الدبلوماسية بعيداً عن ترحيل العامة.

وقد أدخلونا قاعة كبار الزوار ومعنا الإخوة المودعون الذين ضاقت بهم القاعة، وجاءت موظفة القاعة تسأل عما نريد من شاي وقهوة أو شراب بارد.

ثم خرجنا إلى الطائرة من مخرج خاص أيضاً، وسمحوا للأخ (خوان) جزاه الله خيراً بأن يرافقنا وحده للطائرة، ربما لكونه معروفاً لديهم، وأما الآخرون فقد ودعناهم في مبنى المطار.

ثم غادرنا المطار إلى مدينة (يكاترين بورغ) عاصمة منطقة الأورال في طيران ذكر المضيف أنه يستغرق ثلاث ساعات وعشر دقائق دون توقف.

والحديث عن منطقة الأورال في كتاب خاص، ولكنه صغير عنوانه: « مقال عن منطقة الأورال » ولله الحمد والشكر على كل حال وهو المستعان وعليه التكلان.

الفهرس

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف ٣

مؤلفاته المطـــبوعة في غير فن الرحلات ١١

المقدمة ١٥

سبب الرحلة: ١٨

إلى مدينة توبولسك ٢١

من تومين إلى توبولسك ٢٤

قرية يمبا ييفا: ٢٥

تاريخ المسجد: ٣٠

مع إمام المسجد: ٣١

مسجد نعمة الله: ٣٢

استئناف السير: ٣٥

قرية الإوزّة السوداء: ٣٧

السبح من نوى التمر: ٤١

جنة طيورها الغربان: ٤٣

قرية صغيرة: ٤٦

دائرة ياركوفا: ٤٧

بلدة ياركوفا: ٤٨

مع رئيس جمعية المسجد: ٥١

حديث عن بلدة ياركوفا: ٥٣

مواصلة السير: ٥٥

الحدود الإدارية لتوبولسك: ٥٦

نهر إيرتيش: ٥٧

هذه توبولسك: ٥٩

إحدى وخمسون درجة تحت الصفر: ٥٩

المدينة القديمة: ٦١

مسجد توبولسك: ٦١

حديث المسجد: ؟ ٦٤

المسلمون في توبولسك: ٦٧

الوداع بدموع السماء: ٧٠

مائدة أنقوشية: ٧١

جولة في مدينة توبولسك: ٧٥

بدايات توبولسك: ٧٦

التاريخ المحزن والمحرف: ٧٧

كرملين توبولسك: ٧٩

أين أهل المنطقة من المسلمين؟ ... ٨٣

مغادرة توبولسك: ٨٥

قرية سومكينو: ٨٥

قرية يورشاق: ٩٠

وقرية سابا ناكي: ٩٤

أقدم مسجد في المنطقة: ٩٦

يفتخر بقراءة الفاتحة: ١٠٣

العودة إلى تومين: ١٠٤

قمرنا ليس كقمركم: ١٠٥

اختتام الدورة التدريبية: ١٠٩

يوم الأئمة والدعاة: ١٠٩

كلمتي في الاحتفال: ١١١

توزيع الشهادات والجوائز: ١١٦

إلى نهاية العالم ١١٩

من تومين إلى أرنغوي: ١٢٣

بقايا المياه الجامدة:..... ١٢٨
المنظر الغريب: ١٢٩
المنظر العجيب: ١٣١
الأرض الغريبة:..... ١٣٤
الخط الوحيد: ١٣٥
في مطار نوفي أرنغوي: ١٣٧
الحديث التلفازي تحت لسع البعوض١٣٩
مدينة نوفي أرنغوي: ١٤٠
بلاد لا تصلح للعرب:..... ١٤٢
نهر ياخا: ١٤٣
إلى مسجد نوفى ارنغوي: ١٤٦
الصلاة القطبية:..... ١٤٨
والغداء القطبي:..... ١٤٩
مدير الشركة مسلم:..... ١٥١
مسجد نوفي أرنغوي:..... ١٥٣
وحديث عن المدينة: ١٥٥
الرمل والجَمد والأساس الغريب:. ١٥٨
إلى نهاية العالم: ١٦٠
الشمس في الشمال: ١٦١
النهر القصير العمر:..... ١٦٤
ما أرخص السمك:..... ١٦٤
هذه نهاية العالم:..... ١٦٥
بعوض سيبيريا وذباب استراليا:..١٦٧
البعوض لا ينقل الأمراض:..... ١٦٩
العذاب بالبعوض:..... ١٧٠
عود إلى الحديث عن النصب القطبي١٧١
أرض ميتة وبعوض حي : ١٧٣
هل بعث في هذه المنطقة نبي؟....١٧٤
العودة إلى نوفي ارنغوي:..... ١٧٥
فقه المناطق القطبية: ١٧٨
أوقات الصلاة: ١٧٨
الاجتماع بالمسلمين:..... ١٨١
صلاة المغرب قبل غروب الشمس١٨٥
نهاية البرنامج بنهاية اليوم: ١٨٦
نور الليل: ١٨٧
بلاد العجائب والشدائد: ١٨٩
إلى أرض المسجد: ١٨٩
دروع البعوض:..... ١٩٣
في مركز المدينة:..... ١٩٤
مغادرة نهاية العالم: ١٩٦
الفهرس:..... ١٩٧

https://dawa.center

المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies

كتب مخطوطة في الرحلات للمؤلف

١- رحلات في البيت : رحلات داخل المملكة العربية السعودية.
٢- جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط.
٣- حديث المؤتمرات (الخارجية).
٤- جولة في جزائر المحيط الأطلسي.
٥- مؤتمرات إسلامية حضرتها.
٦- رحلة المسافات الطويلة.
٧- حول العالم في خط متعرج.
٨- الإشراف على أطراف من المشرق العربي.

الرحلات الإفريقية

٩- الإشراف على أطراف من المغرب العربي.
١٠- العودة إلى غرب إفريقية.
١١- من غينيا الاستوائية إلى ساوتومي.
١٢- إلى إرتيريا بعد ٣٦ سنة.
١٣- العودة إلى المغرب الأقصى، بين الصحراء والأرض الخضراء.

رحلات في القارة الأوربية

١٤- البرتغال وبلجيكا وهولندا.
١٥- شمال الشمال: النرويج وفنلندا.
١٦- التعليق على السفر إلى أقطار البلطيق.
١٧- من كوبنهاجن إلى كييف مرورا بباريس.
١٨- رحلة الشمال.
١٩- خلال أوكرانيا بحثاً عن المسلمين.
٢٠- زيارة لإيطاليا وحديث في شؤون المسلمين.
٢١- تجوال في بلاد البرتغال.
٢٢- رحلة الأندلس.
٢٣- زيارات خاطفة لمدن أوربية مختلفة.
٢٤- العودة إلى داغستان.
٢٥- من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء.

الرحلات الهندية

٢٦- على أعتاب الهملايا.
٢٧- رحلات في شمال الهند.
٢٨- بلاد الهند والسند باكستان.
٢٩- في الشمال الغربي من الهند.
٣٠- في أقصى شرق الهند.
٣١- وسط الهند.

الرحلات الآسيوية

٣٢- رحلات في بلاد الملايو.
٣٣- في مهد الترك: تركستان الشرقية.
٣٤- في أحناء إندونيسيا.
٣٥- في شمال شرق آسيا.
٣٦- جمهورية قازاغستان: ملخص تاريخي ومشاهدات ميدانية.
٣٧- إلى تاجيكستان، ثانية.
٣٨- قازاغستان بعد أوزبكستان وتاجيكستان.

رحلات في القارة الأمريكية الجنوبية

٣٩- الحل والرحيل في بلاد البرازيل.
٤٠- العودة إلى البرازيل.
٤١- رؤية جديدة للجانب الأبعد من أمريكا الجنوبية.
٤٢- رحلة الجنوب.
٤٣- شمال البرازيل.
٤٤- وسط البرازيل.
٤٥- فنزويلا وترينداد.
٤٦- في الشرق الشمالي من البرازيل.
٤٧- رحلات فنزويلية.

رحلات في أمريكا الشمالية

٤٨- وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية
٤٩- تلبية النداء لزيارة كندا

الرحلات الصينية

٥٠- في وسط الصين.

الرحلات الكاريبية

٥١- المارتينيك، وبربادوس.
٥٢- دومنيكا وقوادلوب وأنتيقوا.
٥٣- بورتوريكو وجمهورية الدومنيكان.

رحلات بلقانية

٥٤- كرواتيا وسلوفينيا.

أستراليا وجنوب المحيط الهادئ

٥٥- في شمال أستراليا.
٥٦- في جنوب أستراليا.
٥٧- في شرق أستراليا.
٥٨- في غرب أستراليا.
٥٩- غينيا الجديدة آخر الغينيات زيارة.
٦٠- الإلمام بالمحيط الهادئ من أستراليا إلى جزيرة قوام.

رحلات في جمهوريات الموز

٦١- بلاد المكسيك وقواتيمالا.
٦٢- السفر والأوبة من كوبة.
٦٣- التشريق بعد التغريب، في بحر الكاريب.

الرحلات الروسية

٦٤- جمهوريات القبائل الروسية.
٦٥- إقليم أورنبورغ.
٦٦- إلى الشرق الأقصى الروسي.
٦٧- مقال في السفر إلى منطقة الأورال.

الرحلات السيبيرية

٦٨- غرب سيبريا.
٦٩- شرق سيبريا.

Dar Altholothia
9789960438870
SR 20.00

مطبعة النرجس- ت: ٢٣١٦٦٥٣ ف: ٢٣١٦٨٦٦

ردمك : ٢ - ٨٨٧ - ٤٣ - ٩٩٦٠